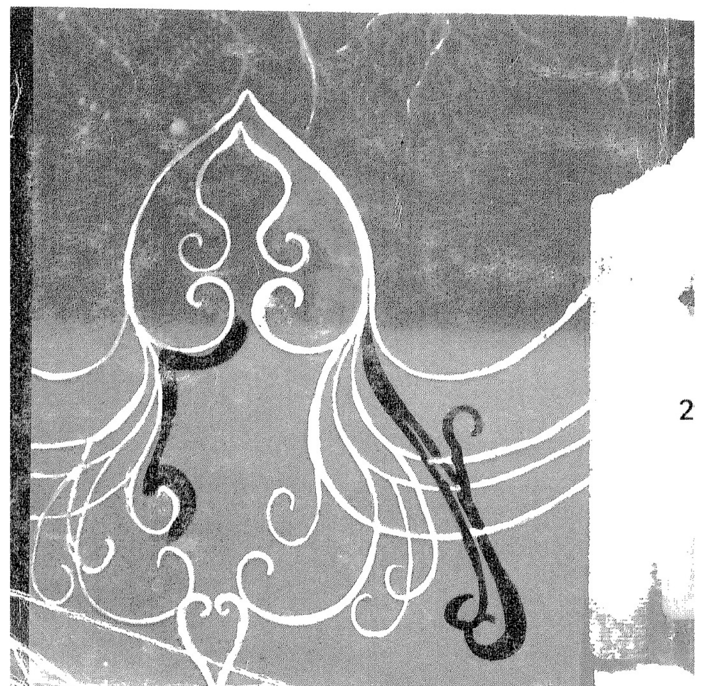
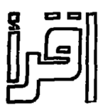
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

الدكتور محمد سيد طنطاوى

القصة فى القرآن الكريم





[٥٧٩]

القصة في القرآن الكريم

قصة إبراهيم ويوسف عليهما السلام

الدكتور محمد سيد طنطاوى

القصّة فى القرآن الكريم

قصة إبراهيم ويوسف عليهما السلام

الجزء الثانى



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

قصة ابراهيم عليه السلام

قصة إبراهيم - عليه السلام - بجوانبها المتنوعة ، من القصص التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم ، فى سور متعددة ..

فقد جاء الحديث عنها فى سور : البقرة ، وآل عمران ، والأنعام ، والتوبة ، وهود ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، ومريم ، والأنبياء ، والحج ، والشعراء ، والعنكبوت ، والصافات ، والزخرف ، والذاريات ... وغيرها .

وورد اسم إبراهيم - عليه السلام - فيما يقرب من سبعين موضعًا من القرآن الكريم .

وينتهى نسب إبراهيم إلى نوح - عليهما السلام - فقد قال الإمام ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » جـ ١ ص ١٥٢ فى بيان نسبه : هو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروخ بن راعو بن فالغ بن عابر ... ابن سام ، بن نوح - عليه السلام - وكانت المدة بين إبراهيم ونوح - عليهما السلام - تزيد على ثلاثة آلاف سنة .

وولد إبراهيم - عليه السلام - بأرض بابل بالعراق ..

قال ابن كثير - رحمه الله : وروى ابن عساكر من غير وجه على عكرمة أنه قال : كان إبراهيم - عليه السلام - يكنى « أبا الضيفان » .

قالوا : ولما كان عمر والده تارح خمسا وسبعين سنة ، ولد له إبراهيم – عليه السلام – وناحور وهاران ، وولد لهاران « لوط » – عليه السلام – وعندهم أن إبراهيم هو الأوسط ، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها ، وهى أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل . وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار ... خلافا لمن قال : إن إبراهيم ولد بغوطة دمشق ... [البداية والنهاية جـ ١ ص ١٥٢] .

ثم هاجر إبراهيم مع أبيه من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس والجزيرة والشام ، فنزلوا حران ، وهناك تزوج بسارة ، ابنة ملك حران ، وكان أهلها يعبدون الكواكب .. ويبدو أنه عاد مرة أخرى إلى أرض بابل . التى كان أهلها يعبدون الأصنام ، وهناك جرى ما جرى بينه وبين ملكها وأهلها من محاورات ، ومجادلات ، خلال دعوته لهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

ثم رجع مرة أخرى إلى بلاد الشام ، ومعه ابن أخيه لوط – عليه السلام – ثم رحل بعد ذلك إلى مصر ، بعد أن اشتد القحط والغلاء فى بلاد الشام .

وبعد أن أقام هو وزوجه فى مصر ما شاء الله له أن يقيم ، عاد إلى فلسطين ، قال ابن كثير – رحمه الله : « ثم إن الخليل – عليه السلام – رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن – وهى الأرض المقدسة التى كان فيها – ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم « هاجر » القبطية المصرية – التى أهداها ملك مصر لسارة زوجة إبراهيم – وقد تزوجها إبراهيم – عليه السلام – بعد ذلك ، وأنجب منها إسماعيل – عليه

السلام .. » ثم انتقل - عليه السلام - ومعه هاجر وابنها إسماعيل ، إلى مكة المكرمة ، وبعد فترة من الزمان أمره الله - تعالى - ببناء المسجد ، وشاركه فى ذلك ابنه إسماعيل وكانت وفاة إبراهيم - عليه السلام - ببلدة « جبرون » بفلسطين .

قال ابن كثير - رحمه الله : « وقبره وقبر ولده إسحاق ، وولد ولده يعقوب ، فى المربعة التى بناها سليمان بن داود - عليهما السلام - ببلدة حبرون - وهى المعروفة اليوم باسم الخليل - وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا ، فقبره بالمربعة تحقيقًا ، أما تعيينه منها ، فليس فيه خبر صحيح عن معصوم .. [راجع البداية والنهاية جـ ١ ص ١٥٢ إلى ص ١٩٠] .

هذه لمحة عن حياة إبراهيم - عليه السلام - كما ذكرها المحققون من المؤرخين ، أما حديث القرآن الكريم عنه ، فهو حديث بليغ حكيم مفصل ، سنجتهد - بإذن الله - فى تفسيره ، وبيان ما اشتمل عليه من توجيهات سديدة ، وآداب قويمة ، وعظات بليغة .

وصلًا للحديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ولنبدأ بما جاء عنه فى سورة الأنعام :

قال - تعالى - : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما

تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين ... ﴾ [الآيات ٧٤ - ٧٩] .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ . وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - لأبيه آزر ، منكرا عليه الأصنام : أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذى خلقك وخلق كل شىء ؟ .

إنى أراك وقومك الذين ساروا على نهجك فى عبادتها ، فى ضلال مبين ، وانحراف ظاهر عن الطريق المستقيم .

قال الآلوسى - رحمه الله : « وآزر بزنة آدم - علم أعجمى لوالد إبراهيم - عليه السلام - وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو بدل من إبراهيم أو عطف بيان : وقيل إن لفظ « آزر » لقب لوالد إبراهيم واسمه الحقيقى « تارح » وقيل هو اسم جده . وقيل هو اسم عمه ، والجد والعم يسميان أبا مجازا » [تفسير الآلوسى جـ ٧ ص ١٤٩] .

والتعبير بقوله : ﴿ أتتخذ ﴾ الذى هو افتعال من الأخذ ، فيه إشارة إلى أن عبادته هو وقومه لها شىء ، مصطنع ، وأن الأصنام ليست أهلا للألوهية ، وفى ذلك ما فيه من التعريض بسخافة عقولهم ، وسوء تفكيرهم .

ووصف - سبحانه - الضلال بأنه مبين : للإشعار بأن فساد عقولهم قد وصل إلى منتهاه ، حيث إنهم لم يتفطنوا إلى أن عبادة الأصنام شىء مهين ، مع وضوح الأدلة على ذلك .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ .

والملكوت : مصدر كالجبروت ، وزيدت فيه التاء والواو للمبالغة فى الصفة ، والمراد به الملك العظيم ، وهو مختص بملكه - تعالى .

أى : وكما أرينا إبراهيم أن الحق فى مخالفته لأبيه وقومه ، نريه - أيضا - مظاهر قدرتنا . ونطلعه على حقائقها المتجلية فى السموات والأرض ، ليزداد إيماناً على إيمانه ، وليكون من العالمين علماً كاملاً لا يقبل الشك بأنه على الحق ، وأن مخالفيه على الباطل .

ثم بين - سبحانه - الثمرات التى ترتبت على ذلك فقال : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : وجن عليه الليل : أى : ستره بظلامه . وأصل الجن : الستر عن الحاسة . يقال : جنه الليل وجن عليه يجن جنا وجنونا ، أى : غطاه ، فالمادة . تدل على الستر والتغطية .

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم ، رأى فى الأفق كوكبًا ، فقال - على سبيل الفرض وإرخاء العنان للمشركين الذين يعبدون الكواكب والأصنام - هذا الكوكب هو ربى فلما غاب وغرب وأفل ، قال : لا : أحب عبادة الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وابتعاد ، وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .

ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم - عليه السلام - على وحدانية الله - تعالى - فقال : ﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - القمر مبتدئاً فى الطلوع ، ومنتشراً ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربى ، فلما غاب القمر وأفل كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعًا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جانب الحق ، وإلى الطريق القويم ، الذى يرتضيه ، لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذى يعتوره الأفول - أيضًا - لا يصلح أن يكون إلها .

وفى مخاطبة إبراهيم - عليه السلام - لقومه بهذا القول ، تنبيه لهم إلى معرفة الرب الحق ، وأنه واحد لا شريك له ، وأن الكواكب والقمر لا يصلحان للألوهية ، وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربًّا غير الكواكب والقمر ..

ثم عرض بقومه بأنهم ضالون ، لأن قوله : ﴿ لأكونن من القوم الضالين ﴾ : يدخل على نفوسهم الشك فى معتقدهم أنه لون من الضلال .

ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة ، التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ﴾ .

أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مبتدئة فى الظهور ، وقد عم ضياؤها الآفاق ، قال مشيرًا إليها : ﴿ هذا ربى هذا أكبر ﴾ أى : أكبر الكواكب جرما ، وأعظمها قوة ، وأشدها إضاءة .. فلما أفلت وغابت خلف الأفق ، جاهر قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها ، ألا وهى براءته من كل معبود سوى الله - عز وجل .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن إبراهيم - عليه

السلام –قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى الاستدلال على وحدانية الله – تعالى .

رأينا فى قوله تعالى – : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ﴾ .

رأينا كيف أن إبراهيم – عليه السلام – قد أقام الأدلة الحكيمة ، والبراهين الساطعة ، على وحدانية الله تعالى ، وسفه المعبودات الباطلة وعابديها .

ثم بين – سبحانه – جانبا مما دار بين إبراهيم وقومه من مجادلات ومخاصمات فقال : ﴿ وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا ، وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وحاجه قومه ﴾ : من المحاجة بمعنى المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة .

والحجة : تطلق على كل ما يدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه ، أو رد دعوى خصمه .

فمعنى : وحاجه قومه : أى : وجادلوه وخاصموه ، أو شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد ، تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتهديد والتخويف ، وقد رد عليهم إبراهيم ردا قويا جريئًا فقال لهم : ﴿ أتحاجونى فى الله وقد هدان ﴾ .

أى : أتجادلوننى فى شأنه – تعالى – وفى أدلة وحدانيته ،والحال أنه – سبحانه – قد هدانى إلى الدين الحق ، وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم .

ثم صارحهم بأنه لا يخشى أصنامهم ، ولا يقيم لها وزنا فقال : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ﴾ .

أى : ولا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع .

ويبدو أن قومه كانوا قد خوفوه بطش أصنامهم ، وقالوا له كما قالت قبيلة عاد لنبيها هود : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ .

وقد رد عليهم إبراهيم هذا الرد القوى الصريح ، الذى يدل على استخفافه بهم وبآلهتهم .

وقوله : ﴿ إلا أن يشاء ربى شيئًا ﴾ استثناء مما قبله .

أى : لا أخاف معبوداتكم فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئا من المكروه يصيبنى من جهتها ، بأن يُسْقِط علىّ صنما يشجنى ، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته ، لا بقدرة أصنامكم أو مشيئتها .

وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم - عليه السلام - مع ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الايمان ، وكافر بتلك الآلهة كل الكفران ، فإنه فوض الأمر كله لمشيئة الله - تعالى - ، وعلق مستقبله على ما يريده - سبحانه - له .

وقوله : ﴿ وسع ربى كل شىء علمًا ﴾ أى : أن علم ربى وسع كل شىء وأحاط به ، فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال ما يخيفنى من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب .

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة استئنافاً بيانيا ، فكأن قومه قد قالوا : كيف يشاء ربك شيئا تخافه ؟ فكان جوابه عليهم : ﴿ وسع ربى كل

شيء علما ﴾ . فأنا وإن كنت عبده وناصره ، فإنه أعلم بإلحاق الضر أو النفع بمن يشاء من عباده .

وقوله : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ : حض لهم على التذكر والتفكر ، وتوبيخ على غفلتهم وجهالتهم . أى أتعرضون .. أيها الغافلون – عن التأمل والتذكر ، بعد أن وضحت لكم بما لا يقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وأن هذه المعبودات الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

ثم حكى القرآن الكريم عن إبراهيم – عليه السلام – أنه بعد أن صارح قومه بأنه لا يخشى آلهتهم ، أخذ فى التهكم بهم ، والتعجب من شأنهم ، لأنهم يخوفونه مما لا يخيف ، فقال : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ﴾ أى : وكيف ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة ، وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم ، دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل ؟

وهكذا ، نجد القرآن الكريم يحكى لنا مصارحة إبراهيم لقومه أنه لا يخشى آلهتهم ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ﴾ .

فالاستفهام للإنكار التعجبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع سيؤدى بهم إلى الهلاك المحقق وهو إصرارهم على الإشراك بالله . ثم رتب على هذا

الإنكار التعجبى ما هو نتيجة له فقال : ﴿ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ .

أى : فأى الفريقين ، فريق الموحدين أم فريق المشركين ، أحق وأولى بالشعور بالأمان والاطمئنان ، إن كنتم من ذوى العلم السليم ، والعقل القويم ؟

إن كنتم تعلمون ذلك ، فأخبرونى به ، وأظهروه بالدلائل والحجج !! .

وهذا لون من إلجائهم إلى الاعتراف بالحق ، إن كانوا ممن يعقل أو يسمع ، وحث لهم على الإجابة .

* * *

ثم بين – سبحانه – من هو الفريق الأحق بالأمن فقال – تعالى – ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

أى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك ، كما يفعل فريق من المشركين ، حيث عبدوا الأصنام ، وزعموا أنهم ما عبدوها إلا لكى تكون واسطة بينهم وبين خالقهم ، فمن طريقها يتقربون إلى الله تعالى .

أولئك المؤمنون الصادقون الذين لم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك ، هم المستحقون للأمان من خالقهم ، وهم المهتدون إلى الحق دون غيرهم .

هذا ، وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان – البخارى ومسلم – عن

عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - أيضا - قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .. ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، وأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . إنما هو الشرك .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد وضحت ما فطر عليه إبراهيم - عليه السلام - من إيمان عميق ، وعقل سليم ، وقوة فى إيراد البراهين والحجج على أن المستحق للعبادة ، إنما هو الله الواحد القهار .

وفى سورة مريم آيات كريمة ، وضحت لنا بأسلوب بليغ مؤثر ، كيف وجه إبراهيم - عليه السلام - الدعوة إلى أبيه ، بطريقة لحمتها وسداها الأدب فى الخطاب ، والحكمة فى الإرشاد ، وهذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ [الآيات من ٤١ - ٤٥] .

أى : واذكر أيها الرسول الكريم للناس قصة أبيهم إبراهيم - عليه السلام - لكى يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا به فى قوة إيمانه وصفاء يقينه ، وجميل أخلاقه .

وقوله سبحانه : ﴿ إنه كان صديقا نبيًا ﴾ تعليل لموجب الأمر فى قوله : ﴿ واذكر ﴾ ومدح لإبراهيم على ما كان يتحلى به من صفات كريمة ، إذ الصديق : صيغة مبالغة من الصدق ، أى أنه كان ملازما للصدق فى كل أقواله وأفعاله ، كما كان نبيا من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

ثم بين - سبحانه - مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال : ﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾ .

والتاء فى قوله : ﴿ يا أبت ﴾ عوض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه ، زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق .

أى واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه مستعطفا إياه : يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه ، ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئا من الاغناء ، لأنه لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - نفعا ولا ضرا .

ثم دعاه إلى الحق بألطف أسلوب فقال : ﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا ﴾ .

أى : قال له يا أبت إنى قد جاءنى من العلم النافع الذى علمنى الله إياه ، مالم يأتك أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، فاتبعنى فيما أدعوك إليه ، أهدك إلى الطريق القويم ، ثم نهاه من عبادة الشيطان لأنها جهل وانحطاط فى التفكير فقال : يا أبت لاتعبد الشيطان ، فإن

عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو للإنسان .. ثم علل هذا النهى بقوله : ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصيًا ﴾ أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان كثير العصيان لله تعالى ، ومن شأنه ذلك لا يدعو الناس إلى الخير ، وإنما يدعوهم إلى الشر .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ .

أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، فتصير بسبب ذلك قرينا للشيطان فى العذاب بالنار .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ الرقيق .. خاطب إبراهيم عليه السلام أباه ، وهو يدعوه إلى وحدانية الله تعالى .

ولكن هذه النصائح الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه ، لم تصادف أذناً واعية ، ولم تحظ من أبيه بالقبول ، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد ، فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ﴾ .

أى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والزجر : أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتى ، وكاره لها ، ومنفر للناس من عبادتها ؟

﴿ لئن لم تنته ﴾ عن هذا المسلك ﴿ لأرجمنك ﴾ بالحجارة ﴿ واهجرنى مليًا ﴾ أى : واغرب عن وجهى زمنا طويلا ، فإنى لا أحب أن أراك .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة

والتهديد ، والعناد والجهالة .. شأن القلب الذى أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم عليه السلام لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والغضب ، بل قابل ذلك بسعة الصدر ، وجميل المنطق ، حيث قال له : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًّا ﴾ .

أى قال إبراهيم لأبيه بكل أدب وتوقير لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال وأذى ، ولك منى الودع الذى أقابل معه إساءتك إلىّ بالإحسان ، وفضلاً عن ذلك : ﴿ سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ .

أى : كان بارًّا بى ، كثير الإحسان إلىّ ، يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه واهتم بشأنه .

وقد وفى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفار لأبيه ، إلى أن تبين له أنه عدو لله - تعالى - فتبرأ منه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [سورة التوبة : الآية ١١٤] .

ثم حكى سبحانه بعد ذلك أن إبراهيم عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم ،فقال تعالى : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيًّا ﴾ .

أى : وقال إبراهيم - أيضا - لأبيه : إنى بجانب استغفارى لك ، ودعوتى لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها من دون الله ، وأرتحل عنكم جميعا إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربى وخالقى بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد

عودنى – سبحانه – أنه لا يخيب دعائى وتضرعى إليه .

ثم ختم سبحانه تلك المحاورة ببيان ما ترتب على اعتزال أهل الشرك من خيرات وبركات ،فقال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب ،وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية ، لأنه سبحانه اقتضت حكمته ورحمته أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

والمتدبر لآيات القرآن الكريم ، يرى كثيرا منها خلال حديثها عن قصة إبراهيم عليه السلام ، قد ساق المجادلات والمحاورات التى دارت بينه وبين قومه وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وينهاهم عن عبادة غيره .

ومن الآيات التى وضحت هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ [الآيات : ٥١ – ٥٨] .

والمراد بالرشد فى قوله سبحانه ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ الهداية

إلى الحق ، والبعد عن ارتكاب ما نهى الله عنه .

والمراد بقوله : ﴿ من قبل ﴾ : من قبل أن يكون نبيا ، أو من قبل موسى وهارون اللذين سبق الحديث عنهما قبل هذه الآية .

والمعنى : ولقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - إبراهيم عليه السلام الرشد إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، من قبل النبوة ، بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال ، أو من قبل أن نرسل موسى وهارون إلى فرعون ، فقد كانت رسالة إبراهيم ، سابقة على رسالة هذين النبيين الكريمين ، اللذين جاء الحديث عنهما قبل الحديث عن قصة إبراهيم ، فى قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين . ﴾ ولا مانع من أن تشمل الآية الكريمة هذين المعنيين ، أى أن الله تعالى قد منح إبراهيم رشده من قبل النبوة ، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما فى الزمان .

وقوله تعالى ﴿ وكنا به عالمين ﴾ : بيان لكمال علم الله تعالى ، أى وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين ، بحيث لا يخفى علينا شيء من شئونه أو من شئون غيره .

أخذت السورة الكريمة فى تفصيل ما دار بين إبراهيم وقومه من مجادلات ومحاورات ، فقال تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ .

أى وكنا بإبراهيم وبأحواله عالمين ، وقت أن قال لأبيه وقومه ، على سبيل الانكار ، ما هذه التماثيل الباطلة التى أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .

وسؤاله عليه السلام لهم بهذا الأسلوب ، إنما هو من باب تجاهل

العارف زيادة فى الاستخفاف بهم وبأصنامهم ، لأنه كان يعلم علم اليقين أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار ، أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم ، حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم .

وعبر عن الأصنام بالتماثيل زيادة فى التحقير من أمرها ، والتهوين من شأنها ، فإن التمثال هو الشىء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك .

وفى التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها تفظيع لفعلهم ، وتنفير لهم منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم . ثم حكى سبحانه ما رد به قوم إبراهيم عليه فقال : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ . وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم ، حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر .

أى قالوا فى جوابهم على نبيهم : وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم . وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ أى : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، فى ضلال عجيب لا يقدر قدره .

دارت محاولات ومجادلات بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، وهم يصرون غاية الإصرار على أنهم يسيرون على الدرب الذى سلكه آباؤهم .. وهو عليه السلام يرد عليهم ويفند مزاعمهم ، ويدحض حجتهم فى عبادة الأصنام . ويصفهم بالضلال المبين ..

وفى فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على الأقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو العكوف عليها ، الباطل لا يصير

حقا بسبب فعل الآباء وعندما واجههم إبراهيم بهذا الحكم البين الصريح قالوا له : ﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ .

أى : قالوا له على سبيل التعجب من حاله : ياإبراهيم أجئتنا بالحق الذى يجب علينا اتباعه . أم أنت من اللاعبين اللاهين ، الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والمداعبة ؟

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم ، وعلى شكهم فيما هم عليه من باطل إلا أن التقليد لآبائهم جعلهم يعطلون عقولهم ، ويستحبون العمى على الهدى ، وقد رد عليهم إبراهيم ردًّا حاسمًا يدل على قوة يقينه ، فقال : ﴿ ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ﴾ أى خلقهن بدون مثال سابق .

﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أى وأنا على أن الله تعالى هو ربكم ورب كل شىء ، وخالقكم وخالق كل شىء من الشاهدين على ذلك ، ومن الواثقين فى صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شىء لا يشك فى صحته .

ثم أضاف على هذا التأكيد القولى ، تأكيدًا آخر فعليًّا ، فقال لهم : ﴿ وتا لله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ .

أى وأقسم بالله قسمًا مؤكدًا ، لأجتهدن فى تحطيم أصنامكم بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها ، وبعد أن تولوها أدباركم .

وأصل الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، وقد عبر به إبراهيم عليه السلام عن تكسير الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير .

وقد وفى إبراهيم بوعده ، وبر فى قسمه ، كما يدل على ذلك قوله تعالى

﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

أى وبعد أن فارق القوم أصنامهم ، توجه إبراهيم إليها ، فحطمها بفأسه ، وحولها إلى قطع صغيرة من الحجارة ، سوى الصنم الأكبر فإنه لم يحطمه ، بل تركه على حالته . لعل قومه يرجعون إليه فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، دون أن يدافع عن إخوته الصغار ؟

ولعل إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك ، ليقيم لهم أعظم الأدلة على أن هذه الأصنام لا تملك الدفاع عن نفسها ، ومادام أمرها كذلك فكيف تستحق العبادة ؟ وبذلك يحملهم على التفكير فى أن الذى يجب أن يعبد إنما هو الله رب العالمين .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم عليه السلام . وقد رأوا أن أصنامهم قد حطمت ، وآلهتهم قد هشمت ، فقال تعالى :

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ .

أى : وحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم ، قالوا على سبيل التفجع والإنكار ، من الذى فعل هذا الفعل الشنيع بآلهتنا التى نعظمها ، إنه لمن الظالمين لها ، المعتدين عليها ، لإقدامه على إهانتها وهى الجديرة بالتعظيم – فى زعمهم – ولمن الظالمين لنفسه حيث سَيُعرضها للعقوبة منا .

﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ أى قال بعضهم لبعض : سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم ، ويتوعدهم بالسوء والعدوان ، وهذا الفتى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم ما فعل .

قال تعالى ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ أى

قالوا - بعد أن تشاوروا فى أمرهم - إذا كان كذلك فأحضروه أمام الناس ، ليشهدوا محاكمتنا له ، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا ..

قال الإمام ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأعظم لإبراهيم ، لكى يتبين فى هذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم وقلة غفلتهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرًا ، ولا تملك لها نفعًا ..

وجاءوا بإبراهيم وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد : ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ .

أى : أنت الذى فعلت هذاالتكسير والتحطيم لآلهتنا التى نعبدها يا إبراهيم ؟

وهنا يرد عليهم إبراهيم بتهكم ظاهر فيقول : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

أى قال لهم باستهزاء واضح بهم وبأصنامهم : الذى حطم هذه الآصنام هو كبيرهم . فإن كنتم لم تصدقوا قولى فاسألوهم من الذى فعل بهم هذا الفعل الشنيع لعلهم ينطقون ويقولون الذى فعل بنا ذلك هو فلان ..

فأنت ترى أن إبراهيم عليه السلام لم يقصد بقوله هذا الاخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، كأنه لم يقصد بقوله : ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أن يسألوا الأصنام لكى تقول لهم من الذى حطمها ..

وإنما الذى قصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم فكأنه يقول لهم إن هذه التماثيل التى تعبدونها من دون الله ، لا تدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد قلت لكم

﴿ تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ ، وتعرفون أنى أنا وحدى الذى بقيت قريبا منهابعد أن وليتم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذى حطمها ، إن كانت لكم عقول تعقل .

قال صاحب الكشاف : قول إبراهيم لهم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ من معاريض الكلام ، ولطائف هذاالنوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى .

والقول فيه إن قصة إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر منه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لهاعلى أسلوب تعريضى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم .

وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر إلا على خرفشة فاسدة - أى كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب : تقرير أن هذه الكتابة لك ، مع الاستهزاء به ... » (تفسير الكشاف ح ٣ ص ١٢٤) .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، من أن إبراهيم عليه السلام قد قاله لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا .

وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظرًا لضعفها بالنسبة لهذا القول .

ثم بين سبحانه موقفهم بعد أن أخرسهم إبراهيم عليه السلام بحجته فقال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

أى أنهم بعد أن وبخهم إبراهيم على غبائهم ، أخذوا فى التفكر ،

فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة ، ولكن هذا اللوم لأنفسهم لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق . فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ إن أمرك هذا لنا ، لهو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه .

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم . شبه ذلك بالانتكاس . وهو قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله ، لأنهم بمجرد أن خطرت لهم الفكرة السليمة أطفئوها بالتصميم على الكفر والضلال فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ماشيًا على قدميه ، فياله من تصوير بديع ، لحالة من يعود إلى الظلام بعد أن يتبين له النور .

ولم يملك إبراهيم عليه السلام إزاء انتكاسهم على رءوسهم ، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق، وهو الحليم الأواه المنيب، وقد قابلوا تأنيبه لهم بالتهديد والوعيد ، ولكن الله تعالى نجاه من مكرهم ، قال تعالى ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ .

أى قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا أتتركون عبادة الله

الذى خلقكم وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشىء من النفع سحقا وقبحا لكم ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين به عبادة الله تعالى عن جهل وسخف وطغيان ..

وهنا أخذتهم العزة بالإثم شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته فقالوا فيما بينهم : حرقوه بالنار ، وانصروا آلهتكم عليه التى حطمها فى غيبتكم ، إن كنتم بحق تريدون نصرتها ..

وأحضر قوم إبراهيم الحطب الكثير وأضرموا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فلما فعلوا ذلك قلنا يانار كونى بقدرتنا وأمرنا ، ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله تعالى ...

وتحولت النار إلى برد وسلام عليه ، وأراد الكافرون به كيدًا فجعلناهم بإرادتنا وقدرتنا الأخسرين ، حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، بل رد الله تعالى كيدهم فى نحورهم .

هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم عليه السلام حين جىء به إلى النار ، قالت الملائكة : ياربنا ما فى الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وأنه الآن يحرق فأذن لنا فى نصرته ! !

فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فلينصره ، وإن لم يسأل غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه وناصره . فخلوا بينى وبينه .

فأتى جبريل عليه السلام إلى إبراهيم .

فقال له : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم .

فقال له جبريل : فلماذا لم تسأله ؟

فقال : علمه بحالى يغنيه عن سؤالى .

وفى سورة الشعراء ، نجد آيات كريمة ، تحكى لنا ما دار بين إبراهيم وقومه من محاورات ، وما توجه به إلى خالقه من دعوات ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ... ﴾ الآيات من ٦٩ - ٨٢ الشعراء .

والمعنى : واقرأ أيها الرسول الكريم - على قومك نبأ رسولنا إبراهيم - عليه السلام - الذى يزعم قومك أنهم من نسله ، وأنهم يتبعون ديانته ، مع أنه براء منهم ومن شركهم ..

وقوله : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ بيان لما دعاهم إليه من نبذ لعبادة غير الله .

أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - على قولك خبر إبراهيم ، وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - عز وجل .

فأجابوه بقولهم : ﴿ نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ فنستمر على عبادتها بدون انقطاع . وكان يكفيهم أن يقولوا : نعبد أصناما ، ولكنهم لغبائهم وعنادهم ، أرادوا أن يتباهوا ويتفاخروا بهذه العبادة الباطلة ..

وهكذا ، عندما تنحط الأفهام ، تتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر

بالمرذول من القول والفعل ..

وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، فقال لهم : هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا دعوتموها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها ، وهل تملك أن تنفعكم بشىء من النفع أو بشىء من الضر ؟

ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب بعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته ، فلجأوا إلى التمسح بآبائهم فقالوا : ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ ..

أى : قالوا له : نعم هذه الأصنام هى كما قلت ياإبراهيم لا تسمع دعاءنا ، ولا تنفعنا ولا تضرنا .. ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها فسرنا على طريقتهم فى عبادتها .. وأمام هذا التقليد الأعمى نرى إبراهيم - عليه السلام - يعلن عداواته لهم ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هى لله - تعالى - وحده فيقول لهم ﴿ أفرأيتم ما كنت تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التى عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى - إنها عدو لى ، لأن عبادتها باطلة ، لكن الله تعالى - رب العالمين ، هو وحده الذى أحبه وأخصه بالعبادة ، وأدين له بالطاعة ، لأنه هو الذى أوجدنى بقدرته ، وربانى بنعمته .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - وإنما قال إبراهيم عليه السلام - ﴿ فإنهم عدو لى ﴾ ولم يقل فإنهم عدو لكم تصويرا للمسألة فى نفسه . على معنى : أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو

فاجتنبتها وآثرت عبادة الذى الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بهانفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم بهذه النصيحة إلا بعد أن نصح بها نفسه ليكون أدعى لهم إلى القبول .

ولو قال لهم : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض . وقد يبلغ التعريض بالمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل .

ومنه ما يحكى عن الشافعى – رحمه الله – : أن رجلا واجهه بشىء – لا يليق – فقال له : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى الأدب » .

وسمع أحد الحكماء ناسًا يتحدثون فى الحجر – بكلام فيه لغو – فقال لهم : « هذا المكان ليس بيتى ولا بيتكم » [تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣١٨] .

ثم حكى القرآن ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات كريمة فقال : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ أى : أنا أعبد خالقى الذى أوجدنى بقدرته ، وهدانى إلى طريق الحق بفضله .. ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ أى : وهو – سبحانه – الذى يمنحنى ما به قوام حياتى وأضاف المرض إلى نفسه فى قوله : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وإن كان الكل من الله ، تأدبا مع خالقه ، وشكرًا له على نعمه .

والمراد بالإحياء فى قوله : ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أى : أن من صفات ربى الذى أخصه بالعبادة : أنه – تعالى – بقدرته أن يميتنى عند حضور أجلى ، وبقدرته أن يعيدنى

إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .

ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة لخالقه بقوله : ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ أى : وهو - سبحانه - وحده الذى أطمع فى كرمه أن يغفر لى ما فرط منى من ذنوب يوم يقوم الناس للحساب والجزاء .

وفى هذه الآية الكريمة أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه ، لأنه وجه طمعه فى المغفرة إليه وحده ، واستعظم ما صدر عنه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، واعتبرها خطايا هضمًا لنفسه ، وتعليمًا للأمة أن تجتنب المعاصى ، وأن تكون منها على حذر ، وأن تفوض رجاءها إلى الله - تعالى - وحده .

وبعد أن أثنى على خالقه بهذا الثناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات فقال : ﴿ رب هب لى حكمًا ﴾ أى : علمًا واسعًا مصحوبًا بعمل نافع .

﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

﴿ واجعل لى لسان صدق ﴾ أى : ذكرًا حسنًا ، وسمعة طيبة وأثرًا كريمًا ﴿ فى الآخرين ﴾ أى : فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

ولقد أجاب الله - تعالى - له هذه الدعوة الكريمة ، فجعل أثره خالدًا ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ أى : واجعلنى فى الآخرة من عبادك الذين يخلدون فى جنتك ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾

عن طريق الحق ، وإنى قد وعدته بأن أستغفر له ، وقد بين القرآن فى موضع آخر أن إبراهيم قد رجع عن استغفاره لأبيه ، بعد أن تبين له أنه عدو لله .

قال - تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ [سورة التوبة : ١١٤] .

ثم ختم هذه الدعوات الخاشعات بقوله : ﴿ ولا تخزنى ﴾ أى ولا تفضحنى ﴿ يوم يبعثون ﴾ أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب والجزاء .

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ من أحد لديك ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ أى : استرنى - يا إلهى - يوم القيامة ، يوم لا ينتفع الناس بشىء من أموالهم أو أولادهم ، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم لعبادتك ، وبسلامتها من كل شرك أو نفاق ، وبصيانتها من الشهوات المرذولة ، والأفعال القبيحة .

وهكذا نرى فى هذا الآيات التى ساقتها سورة الشعراء عن قصة إبراهيم : الشجاعة فى النطق بكلمة الحق ، والحجة الدامغة التى تزهق الباطل ، والثناء الجميل على الخالق - عز وجل - ، والدعاء الخاشع الخالص لوجه الله - تعالى - .

فى سورة الصافات آيات كريمة ، حكت لنا - أيضًا - جانبًا من الحجاج والحوار الذى دار بين إبراهيم وقومه وهو يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - كما حكت لنا كذلك تحطيمه للأصنام ، وإنجاء الله - تعالى - له من مكر أعدائه ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الآيات من ٨٣ - ٩٨] .

والضمير فى قوله - تعالى ﴿ وإن من شيعته ... ﴾ يعود على نوح - عليه السلام - .

وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه . وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شِيَع مثل سِدْرة وسِدَر .

قال القرطبى : والشيعة الأعوان ، وهذا اللفظ مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد ...

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق ، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ونصرة دينه .. وهكذا جمع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ، فهى متحدة فى الأصول والأركان .

وكان بين نوح وإبراهيم نبيان كريمان هما : هود وصالح - عليهما السلام . والظرف فى قوله - سبحانه .. ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ متعلق بمحذوف تقديره اذكر . أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ -

وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات ، كالغل والحسد والخديعة والرياء ..

والتعبير بقوله ﴿ إذ جاء ربه ... ﴾ يشعر باستسلام إبراهيم المطلق لأمر ربه ، وإخلاص قلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شىء يملكه فى سبيل رضا خالقه .

وقوله – سبحانه – : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ مشروع فى حكايته ما دار بينه وبين أبيه وقومه . أى : لقد كان إبراهيم – عليه السلام – سليم القلب : صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله – تعالى – ثم أضاف على هذا التوبيخ توبيخًا آخر فقال لهم : ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ ؟ والإفك : أسوأ الكذب . وجعلت الآلهة التى يعبدونها من دون الله هى فى ذاتها إفكا ، لزيادة التنفير منها ، وتقبيح من شأنها .

أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله ؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم . ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره – تعالى ..

أى : فما الذى تظنون أن يفعله خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره ؟ إنه لا شك سيحاسبكم فى ذلك حسابًا عسيرًا ، ويعذبكم عذابًا أليمًا .

ومادام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة ، وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته ، وتنتقل السورة للحديث عما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فتقول : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ﴾ . قالوا : كان قوم إبراهيم بجانب عبادتهم للأصنام ، يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها فى العالم ، وتصادف أن حل أوان عيد لهم ، فدعوه إلى الخروج معهم كما هى عادتهم فى العيد ، فتطلع إبراهيم فى السماوات وقلب نظره فى نجومها ، ثم قال لهم معتذرًا عن عدم الخروج معهم ليخلو بالأصنام فيحطمها : إنى مريض مرضًا يمنعنى من مصاحبتكم ، فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ، ليقيم فى البلد اذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين ... » [تفسير ابن كثير جـ ٧ صـ ٢٠] .

ويبدو لنا أن نظر إبراهيم فى النجوم ، إنما هو نظر المؤمن المتأمل فى ملكوت الله - تعالى - المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وأنه إنما فعل ذلك أمامهم - وهم قوم يعظمون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره عن عدم الخروج معهم ، ويتم له ما يريده من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام .

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك

الأصنام فكلام إبراهيم حق فى نفس الأمر كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه حسب ما يعتقدون .

ثم بين - سبحانه - ما فعله إبراهيم فالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : ﴿ فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ .

وأصل الروغ : الميل إلى الشىء بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راع فلان نحو فلان ، إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال .

وقوله : ﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ زيادة فى السخرية بتلك الأصنام وفى إظهار الغيظ منها ، والضيق بها والغضب عليها .

هذا الغضب الذى كان من آثاره ما بينه القرآن فى قوله - تعالى : ﴿ فراغ عليهم ضربًا باليمين ﴾ أى : فمال عليهم ضاربًا إياهم بيده اليمنى حتى حطمهم ، كما قال تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ ضربًا باليمين ﴾ : للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - لشدة حنقه وغضبه على الأصنام - قد استعمل فى تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهى يده اليمنى ..

وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التى قالها حين قال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها .

وفى سورة « العنكبوت » آيات كريمة ، تحدثت بشىء من التفصيل عن الحجج والبراهين التى ساقها إبراهيم لقومه ، وهو يدعوهم إلى

إخلاص العبادة لله – تعالى – ونبذ كل معبود سواه ، وهذه الآيات هى قوله – تعالى – : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون .. [الآيتان : ١٦ ، ١٧] .

والمعنى : واذكر – أيها المخاطب – إبراهيم – عليه السلام – وقت أن قال لقومه : اعبدوا الله – تعالى – وحده ، وصونوا أنفسكم من كل ما يغضبه .. ﴿ ذلكم ﴾ الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ﴿ خير لكم ﴾ من الشرك ، ومن كل شيء فى هذه الحياة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .

فأنت ترى أن إبراهيم – عليه السلام – قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله – تعالى ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع الذى يتنافى مع الجهل ... .

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل فقال – كما حكى القرآن عنه :

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ... ﴾ .

والأوثان : جمع وثن ، وتطلق على التماثيل والأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله تعالى .

وقوله : ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ أى وتكذبون كذبًا واضحا ، حيث

سميتم هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنكم ولا عن نفسها شيئا .

أو يكون قوله : ﴿ تخلقون ﴾ بمعنى وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعًا ، من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل .

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ من أوثان وأصنام ، ﴿ لا يملكون لكم رزقا ﴾ أى : لا يملكون لكم شيئا من الرزق ولو كان غاية فى القلة .

ومادام الأمر كذلك : فاطلبوا الرزق من الله – تعالى – وحده ، فهو الذى بفضله وكرمه يغنيكم ، مادمتم تخلصون له العبادة والطاعة ..

وهكذا ترى أن إبراهيم – عليه السلام – قد سلك فى دعوة قومه إلى الحق ، أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله – تعالى – وحده ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرصهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله الذى إليه المرجع والمآب .

ثم أخذ إبراهيم – عليه السلام – بعد ذلك ، يحذر قومه من الاستمرار فى تكذيبه ، ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابًا وثوابًا وعقابًا وبعثًا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن سبقهم من الأمم التى كذبت الرسل ، فأصابهم من العذاب ما أصابهم ، فقال تعالى : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، أو لم يروا كيف يبدئ

الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير .. ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات من كلام إبراهيم - عليه السلام - يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ... ﴾ [تفسير ابن كثير جـ ٦ صـ ٢٨٠] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن تكذبوا ﴾ معطوف على كلام محذوف . والتقدير إن تطيعونى - أيها الناس - فزتم ونجوتم وإن تكذبوا ماجئتكم به ، فلستم أنتم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقكم إلى ذلك أمم من قبلكم ، كقوم نوح وعاد وثمود فكانت عاقبة المكذبين لرسلهم الخسران والدمار .

ثم بين لهم إبراهيم وظيفته فقال : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، أما الحساب والجزاء فمردهما إلى الله - تعالى - وحده .

ثم ساق لهم ما يدل على أن البعث حق وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء فقال - تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ... ﴾ .

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، والواو للعطف على مقدر أى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته سبحانه - على الإعادة وهى أهون عليه .

إنهم ليرون بأعينهم كيف يبدئ الله تعالى - الخلق فى النبتة النامية وفى الشجرة الباسقة ، وفى كل ما لم يكن ثم بعد ذلك يكون ...

ومادام الأمر كذلك ، فكيف انكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء .

فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم للبعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على صحته وعلى إمكان حدوثه .

إن الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم أن ذلك على الله يسير وهين ، وأنه سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء ، ولا نعرض قصة إبراهيم عليه السلام إلا لنأخذ منها العبرة والعظة وليست مجرد حكاية للتسلى بها ، فالقصص القرآنى يختلف عما نراه فى عالم الأدب من قصص وحكايات ، فهى قصص واقعية بعيدة عن الخيال والتحريف ، وورودها لحكمة تخدم الهدف من الدعوة إلى الله عز وجل .. لذلك نرى المولى عز وجل يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التفكر يهديهم إلى الحق فقال تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك ، كما قال إبراهيم من قبلك لقومه : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله تعالى - ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متمايزة ، ثم قل لهم بعد ذلك : الله الذى خلق الخلق ابتداء ، وعلى غير مثال سابق ،

وعلى تلك الصور المتنوعة والمتعددة ... هو وحده الذى يعيد الجميع إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن أوجدهم فى المرة الأولى ، لأن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

ثم بين - سبحانه أن الثواب والعقاب متوقف على مشيئته وسنته فى خلقه فقال : ﴿ يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ .

أى : أنه تعالى يعذب من يشاء تعذيبه ، ويرحم من يشاء رحمته ، وإليه وحده لا إلى غيره « تقلبون » أى : ترجعون وتعودون ، فيحاسبكم على أعمالكم ..

وما أنتم - أيها الناس .. بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض أم فى السماء ، ولستم بقادرين على الهرب من لقاء الله ومن حسابه ، ولا يوجد لكم ناصر ينصركم ، أو قريب يدفع عنكم حكمه وقضاءه .

ثم ختمت هذه الآيات ببيان مصير الكافرين فقال تعالى : ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه ، أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ .

أى : والذين كفروا بآيات الله الدالة على لقائه ، بأن أنكروا البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، أولئك الذين كفروا بكل ذلك انقطع أملهم فى رحمتى إياهم انقطاعًا تامًا ، أولئك لهم عذاب أليم لا يعلم مقدار شدته إلا الله تعالى .

وبعد إيراد هذه الأدلة الواضحة على وحدانية الله تعالى ، وعلى أن

البعث حق ، وعلى أن الثواب والعقاب حق ...

بعد كل ذلك حكى سبحانه ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به عليهم ، فقال تعالى ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ... ﴾

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل .

وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، مع أنه فى سور أخرى اكتفى بالإحراق : للإشعار بأن قومه منهم من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا بعد ذلك على الإحراق ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو احرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، ومن تحطيمه لها ...

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة ... ثم بين سبحانه جانبًا من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

والفاء فى قوله سبحانه : ﴿ فأنجاه .. ﴾ فصيحة أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وجمعوا الحطب وأشعلوا النار بصورة شديدة ، ثم ألقوه فيها بعد اشتعالها ، فكانت نتيجة ذلك أن أنجاه الله – تعالى – منها ، بأن جعلها بردًا وسلامًا عليه ..

إن فى كل ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم ، حيث أخرجناه سليمًا من النار ، لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يؤمنون ، بأن الله تعالى هو رب العالمين ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر .

وجمع سبحانه الآيات فقال : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ولم يقل إن فى ذلك لآية للمؤمنين ، لأن فى نجاة إبراهيم دلالات متعددة على قدرة الله .

وفى سورة البقرة آية كريمة ، تحكى لنا لونًا آخر من الجدال الذى دار بين إبراهيم – عليه السلام – وملك معاصر له ، حمله ملكه وسلطانه على الغرور والبطر ، والجحود والكفر .. وهذه الآية الكريمة هى قوله سبحانه : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (الآية ٢٥٨) .

وقوله – تعالى – ﴿ حاج ﴾ أى جادل وخاصم . والمحاجة : المخاصمة والمغالبة بالقول . يقال : حاججته فحججته ، أى : خاصمته بالقول فتغلبت عليه . وتستعمل المحاجة كثيرا فى المخاصمة بالباطل ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهِي لله ومن اتبعن .. ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان .. ﴾ .

والمعنى : لقد علمت – أيها العاقل – قصة ذلك الكافر المغرور ،

الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه - عز وجل - ومن لم يعلم قصته ، فها نحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر ، وما صار إليه أمر غروره وبطره . والمراد به - كما قال الإمام ابن كثير : نمرود بن كنعان .. ملك بابل فى ذلك الوقت ، وكان معاصرًا لسيدنا إبراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور ، وبين سيدنا إبراهيم ، أنه محاجة ، كريمة ، تحكى لنا لونا آخر من الجدال الذى كان بين إبراهيم وملك معاصر له ، حمله ملكه وسلطانه والكفر .. وهذه الآية الكريمة هى قوله : ﴿ الم تر إلى الذى حاج فى ربه أن آتاه الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ (الآية ٢٥٨) .

أى جادل وخاصم . والمحاجة : المخاصمة حججته فحججته ، أى : خاصمته بالقول حجة كثيرا فى المخاصمة بالباطل ، ومن ذلك يقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ... ﴾ وقوله ﴿ أتحاجونى فى الله وقد هدان ... ﴾ .

شأن هذا الكافر ، وما صار إليه أمر غروره وبطره . والمراد به - كما قال الامام ابن كثير : نمرود بن كنعان .. ملك بابل فى ذلك الوقت ، وكان معاصرا لسيدنا ابراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور ، وبين سيدنا ابراهيم ، أنه محاجه ، مع أنه مجادلة بالباطل من هذا الملك .. أطلق على هذه

المجادلة بالباطل محاجة من باب المماثلة اللفظية ، أى : هى محاجته فى نظره السقيم ، ورأيه الباطل .

والضمير فى قوله : ﴿ ربه ﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - والإضافة للتشريف ، وللإيذان من أول الأمر بأن الله تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم ..

وقيل الضمير يعود على نمرود ، لأنه هو المتحدث عنه .

وقوله : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ بيان لسبب إقدام هذه الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان .

أى : سبب هذه المحاجة ، لأن الله تعالى - أعطاه الملك ، فلم يشكر خالقه على هذه النعمة ، بل قابل ذلك بالطغيان والغرور ، واستعمال نعم الله فى غير ما خلقت له . وقوله - سبحانه - ﴿ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ﴾ حكاية لما قاله إبراهيم - عليه السلام - لذلك الملك المغرور فى مقام التدليل على وحدانية الله تعالى .

وأنه سبحانه - هو المستحق للعبادة . أى : قال له : ربى وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها ، ولا يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك سوى الخالق عز وجل - وأنت وغيرك تشاهد ذلك فى كل يوم ، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع ، وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال ..

وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم - عليه السلام ، أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله تعالى - واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الإله الحق ، هو الذى يملك الإحياء والإماتة ، ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم .

ويبدو أن هذا القول من إبراهيم كان نتيجة لدعوة ذلك الملك المغرور إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولكن ذلك الملك طغى وبغى وقال لإبراهيم : ومن ربك هذا الذى تدعونى لعبادته ؟ فقال له إبراهيم : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ .

ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم – عليه السلام – فقال : ﴿ قال أنا أحيى وأميت ﴾ أى : قال ذلك الطاغية إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت ، فأنا أعارضك فى ذلك ، لأنى أنا – أيضًا – أحيى وأميت ..

ومادام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية . قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عن المجرم المحكوم عليه بالقتل ، ويقتل غيره مع براءته من أية جريمة أو ذنب يدعو لعقابه .

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم عليه السلام – أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يزعمه من أنه يحيى ويميت ، ليس من الاحياء أو الإماته المقصودين بالاحتجاج ، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت ، وليس ما قصده ذلك الملك الجبار من قتله لمن يشاء ، وعفوه عمن يشاء ، على سبيل الظلم والقهر ..

كان فى إمكان إبراهيم – عليه السلام – أن يفعل ذلك ، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة ، وقذفه بحجة تفحمه ، وتخرس لسانه ، وتظهر كذبه وغروره وفجوره ، فقال له – كما حكى القرآن عنه – ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ .

أى : قال إبراهيم لخصمه المغرور : لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة ، كما يملك الله تعالى ذلك ، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك

مشاركاً الله تعالى فى قدرته ، فإن كان زعمك صحيحاً ، فأنت ترى وغيرك يرى ، أن الله – تعالى يخرج الشمس فى أول النهار من جهة المشرق ، فأت بها أنت من جهة المغرب .

تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن هجرة إبراهيم – عليه السلام – من مكان إلى آخر من أجل دعوة الناس إلى وحدانية الله – تعالى – كما تكرر الحديث عن بشارته بالذرية الصالحة ، ومن الآيات التى تحدثت عن ذلك قوله – تعالى – فى سورة الصافات : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [الآيات من ٩٩ إلى ١١١] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ حكاية لما قاله ابراهيم – عليه السلام – بعد أن نجاه الله – تعالى – من كيد أعدائه ، وبعد أن جعل النار بردا وسلامًا عليه ..

أى قال إبراهيم – عليه السلام – لقومه بعد أن نجاه الله – تعالى – من مكرهم وبغيهم : إنى ذاهب إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه ، وهو بلاد الشام وقد تكفل – سبحانه – بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى .

قال القرطبى : « هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة - عن أهل الشر والسوء - أول من فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار ، فقال : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ أى : مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، فإنه سيهدين فيما نويت إليه من الصواب .. وكانت هجرته على الأرض المقدسة وهى أرض الشام .. » تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٩٦ » .

والسين فى قوله : ﴿ سيهدين ﴾ : لتأكيد وقع الهداية فى المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله فى تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه بالعراق إلى أرض الشام ، إلا من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لخالقهم - عز وجل ..

ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له إلى الخير والحق ، أملاً آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ .

أى : وأسألك - ياربى - بجانب هذه الهداية ، أن تهب لى الذرية الصالحة التى تكون من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك ، لكى أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك ، وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، كما حكى ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه ، فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق ، ألا وهو إسماعيل - عليه السلام - .

والفاء فى قوله – تعالى – : ﴿ فلما بلغ معه السعى .. ﴾ فصيحة ، أى : بشرناه بغلام حليم هو إسماعيل ، ثم عاش هذا الغلام فى كنف أبيه ، فلما بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه ، ولم يرد نص صحيح لتحديدها .

﴿ قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ أى : قال الأب إبراهيم لابنه إسماعيل : يابنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك ؟

قال الآلوسى : « ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة .. ولعل السر فى كونه منامًا لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص » [تفسير الآلوسى جـ ٢٢ صـ ١٢٩] .

وإنما شاوره بقوله : ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله – تعالى – به فى منامه ، سواء أرضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة إعلامًا له بما رآه ، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، ليختبر عزمه .

وقوله : ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ : بيان لما رد به إسماعيل على أبيه ، وهو رد يدل على علو كعبه فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره . أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما أمرك الله – تعالى – به ، ولا تتردد فى ذلك ، وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه وإرادته .

وفى هذا الرد ما فيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله – تعالى – ونسب الفضل إليه .

ثم بيّن - سبحانه - مظاهر فضله ورحمته بعد هذا الاستسلام التام لقضائه فقال : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ .

أى : وبعد أن صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا .. نادينا إبراهيم بقولنا : يا إبراهيم لقد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذًا كاملاً ، يدل على صدقك فى إيمانك وعلى قوة إخلاصك ..

وقد فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ، لأن من شأننا وسنتنا أن نجازى المحسنين بالجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرجّ كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم ، أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا الجزاء نجزى المحسنين ، إنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين فى إيمانهم .

هذا وجمهور العلماء على أن الذبيح الذى ورد ذكره فى هذه القصة ، هو إسماعيل - عليه السلام - ، ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتى :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ . فبشره الله - تعالى - بغلام حليم ، وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى

أعماله ، رأى أبوه فى المنام أنه سيذبحه ..

ثم قال - سبحانه - بعد كل ما سبق من أحداث : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ وهذا يدل دلالة واضحة على أن المبشر الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر الثانى وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - ، قدجاء الحديث عنها مفصلاً فى سورة « هود » .

وظروف هذه البشارة وملابساتها . تختلف عن الظروف والملابسات التى وردت هنا فى سورة « الصافات » ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى فقال :

« وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين !

مرة فى قوله - تعالى - : ﴿ رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى .. ﴾ فهذه الآية قاطعة فى أن المبشر به هو الذبيح .

ومرة أخرى فى قوله - تعالى - فى سورة هود : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ... ﴾ .

فقد صرح هنا بأن المبشر إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ كبير ، وكان ذلك فى بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط ، وكان فى آخر عمره ..

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كانت سنه لا يستغرب فيها الولد ، ولذلك سأل الله - تعالى - الذرية الصالحة ، فعلمنا بذلك أنها بشارتان ، فى وقتين بغلامين ، أحدهما بغير

سؤال وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل ، وهو الذبيح » [يراجع تفسير القاسمى : جـ ١٤ ص ٥٠٥٧] .

هذا ، وهناك أدلة أخرى على أن الذبيح هو إسماعيل - عليه السلام - ، وهو الأمر الذى تطمئن إليه النفس ، ونرى أنه هو الصحيح ، ومن أراد المزيد من هذه الأدلة فليرجع - مثلاً - إلى تفسير ابن كثير ، وتفسير الألوسى ، وغيرهما .

وبشارة إبراهيم - عليه السلام - بابنه إسحاق ، وردت فى ثلاث سور هى : هود ، والحجر ، والذاريات ، وكلها وضحت أن هذه البشارة حملها الملائكة لإبراهيم ، وهم فى طريقهم لإهلاك قوم لوط - عليه السلام .

أما الآيات التى وردت فى ذلك فى سورة « هود » فتبدأ بقوله - تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلامًا قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ، إن هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ [الآيات من ٦٩ إلى ٧٣] والمراد بالرسل فى قوله - سبحانه - ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى .. ﴾ جماعة من الملائكة أرسلهم الله - تعالى - على نبيه إبراهيم ، لتبشيره بابنه إسحاق - عليهما السلام - وقد اختلفت الروايات فى عددهم . فعن ابن عباس كانوا ثلاثة ، وهم :

جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

وعن الضحاك : أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى : أنهم كانوا أحد عشر ملكًا .

والحجة أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله - تعالى - والبشرى : اسم للتبشير والبشارة ، وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه ، أى : جلده .

وجاءت الجملة الكريمة بصيغة التأكيد ، للاهتمام بمضمونها ، وللرد على مشركى قريش وغيرهم ، ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله « بالبشرى » : للمصاحبة والملابسة . أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : ﴿ قالوا سلامًا قال سلام ﴾ : حكاية لتحيتهم له ولردهم عليه . و ﴿ سلامًا ﴾ منصوب بفعل محذوف ، أى : قالوا : نسلم عليك سلامًا . ولفظ « سلام » مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : قال لهم أمرى سلام .

وقوله - سبحانه - ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ : بيان لما فعله إبراهيم - عليه السلام - مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم .

والعجل : الصغير من البقر . والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض .

يقال : حنذ الشاة يحنذها حنذا ، أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : أن إبراهيم - عليه السلام - لعظم سخائه وكرمه ، بمجرد أن

جاءه هؤلاء الرسل ، وتبادل معهم التحية ، ما كان منه إلا أن أسرع إلى أهله ، فجاءهم بعجل سمين مشوى .

وهذا شأن الكرام أصحاب المروءة والشهامة ، يقدمون التحية للضيف فى أسرع وقت ممكن .

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة .. ﴾ .

ومعنى : « نكرهم » : نفر منهم ، وكره تصرفهم . تقول : فلان نكر حال فلان ، إذا وجده على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .

وأوجس : من الوجس ، وهو الصوت الخفى والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف والفزع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فحين رأى إبراهيم ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفًا ورعبًا ، لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع - يُشير بأن هذا الضيف يريد به سوءًا .

ولذا بادر الملائكة بإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم ، حيث قالوا له : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك من امرأته فقال : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

والمراد بامرأته - كما يقول القرطبى : سارة بنت هاران بن ناحور .. وهى ابنة عمه . وقيامها : كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة

الضيوف ، أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاج إليها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا : حقيقته ، أى : فضحكت سرورًا وابتهاجًا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله - تعالى - لإهلاك قوم لوط ، أو للسببين معًا .

أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ، كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك ضحكت سرورًا وفرحًا لزوال خوفه ، فبشرناها عقب ذلك بمولودها إسحاق ، كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله يعقوب ، فهى بشارة مضاعفة ، إذ أنها تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها ..

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس ، ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة ، يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ﴿ ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ، إن هذا لشىء عجيب ﴾ .

وكلمة ﴿ يا ويلتى ﴾ : تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه ، والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز قد بلغت سن اليأس من الحمل من زمن طويل ، وهذا زوجى إبراهيم شيخًا كبيرًا متقدمًا فى السن ، إن هذا الذى بشرتمونى به لشىء عجيب فى مجرى العادة عند النساء .

وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ أى :

أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة ؟ لا إنه لا يصح لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء .

﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ أى : قالت الملائكة لها زيادة فى سرورها رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية ، عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ حميد ﴾ أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه ، ﴿ مجيد ﴾ أى : كريم واسع الإحسان .

قال الشيخ القاسمى - رحمه الله - : وقد أخذ العلماء من هذه الآيات جملة من الفوائد منها : أن المبشر بشيء ينبغى أن يقابل ذلك بشكر الله - تعالى - على فضله ونعمه ، ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم فى الرد على الملائكة « سلام » بالرفع ، وهو أدل على الثبات والدوام . ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها ، واستحباب خدمة المضيف للضيف ، فإنها من مكارم الأخلاق .. [راجع تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٦٧] .

أما الآيات التى فى سورة « الحجر » فقد حكت لنا البشارة بمولد إسحاق ، بأسلوب مؤثر حكيم ، فقال - تعالى - : ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم . ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا ، قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط

من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .. [الآيات من ٤٩ إلى ٥٦] .

أى : أخبر – أيها الرسول الكريم – عبادى المؤمنين أنى أنا الله – تعالى – الكثير المغفرة لذنوبهم .. وأخبرهم – أيضًا – أن عذابى هو العذاب الأليم لمن هو مستحق له .

فأنت ترى أن الله – عز وجل – قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته – سبحانه – فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه – سبحانه – به .

قدم – سبحانه – نبأ مغفرته ورحمته ، على نبأ عذابه وانتقامه ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

والمراد بقوله – سبحانه – : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم .. ﴾ : الملائكة الذين نزلوا عليه ضيوفًا فى صورة بشرية ، ويشرزوه بغلام عليم .

ثم فصل – سبحانه – ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا .. ﴾ .

أى : وأخبر قومك – أيها الرسول الكريم – عن الضيوف الذين نزلوا على إبراهيم ، فقالوا له على سبيل التحية سلامًا ، أى : سلمت سلامًا .

وقوله تعالى : ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ بيان كما رد به إبراهيم عليهم أى : قال لهم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية : إنا منكم خائفون .

وكان من أسباب خوفه منهم : أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير

وقت الزيارة ، وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه لهم .

هذا ، وقد ذكر - سبحانه - فى سورة هود ، وفى سورة الذاريات أنه رد عليهم السلام ، إلا أنه توجس منهم الخوف فى أول الأمر ، ففى سورة هود قال - سبحانه - : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلامًا قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة .. ﴾ .

وفى سورة الذاريات قال - سبحانه - ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا ، قال سلام قوم منكرون ﴾ .

ولا تعارض بين هذه الآيات ، لأن كلا منها يحكى حالة معينة لإبراهيم - عليه السلام .. ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - ﴿ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ .

أى : قالوا له : لا تخف منا ، فإنا قد جئناك لتبشيرك بغلام ذى علم كثير وهو إسحاق - عليه السلام - وقد حكى - سبحانه - فى سورة هود أن البشارة كانت لامرأته ، بينما حكى هنا أن البشارة كانت له ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معًا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين ، بأن بشروه هو أولاً ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها - أيضًا - ويشهد لذلك قوله - تعالى - ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشروه بهذا

الغلام العليم ، فقال - تعالى - ﴿ قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم : أبشرتمونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترتنى ، فبأى شىء عجيب قد بشرتمونى .

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله ، ونفاذ أمره ، حيث وهبه - سبحانه - هذا الغلام العليم فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتى جرت العادة ألا يكون معها إنجاب الأولاد .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ بيان لما قالته الملائكة لإبراهيم .

أى : قالوا له : يا إبراهيم قد بشرناك بالأمر المحقق الوقوع ، فلا تكن من الآيسين من رحمة الله ، فإن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

وهنا دفع إبراهيم من نفسه نقيصة اليأس من رحمة الله ، فقال على سبيل الإنكار والنفى : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله - تعالى - لأنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب .

وأما الآيات التى فى سورة « الذاريات » فقد حكت - أيضا - تلك القصة بأسلوب مشوق ، فقال - تعالى - : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال

ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ [الآيات من ٢٤ إلى ٣٠] .

وقد افتتحت تلك القصة هنا بأسلوب الاستفهام ، للإشعار بأهميتها ، وتفخيم شأنها ، وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحى .

والضيف فى الأصل مصدر بمعنى الميل .

يقال : ضاف فلان فلانا ، إذا مال كل واحد منهما نحو الآخر ، ويطلق لفظ الضيف على الواحد والجماعة . والمراد به هنا جماعة الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم .

والمعنى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حديث ضيوف إبراهيم المكرمين ؟

إنا فيما أنزلناه إليك من قرآن نقص عليك قصتهم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، على سبيل التسلية والتثبيت ووصفهم - سبحانه - بأنهم كانوا مكرمين ، لإكرام الله لهم بطاعته ولإكرام إبراهيم لهم بحسن الضيافة وقوله - تعالى - : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ... ﴾ بيان لحالهم ومقالهم عند دخولهم عليه .

أى : هل بلغك خبرهم وقت دخولهم عليه ؟ لقد قالوا له نسلم عليك سلاما فكان جوابه عليهم : ﴿ سلام قوم منكرون ﴾ أى : قال لهم سلام منى لقوم لا أعرفهم قبل ذلك . ثم بين - سبحانه ما فعله إبراهيم مع هؤلاء الذين ينكرهم أى لا معرفة له بهم قبل دخولهم عليه فقال ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ .

أى : فذهب إبراهيم إلى أهله خفية ، فجاء إليهم مسرعا بعجل ممتلئ لحمًا وشحمًا .

يقال : راغ فلان إلى مكان كذا ، إذا حال إليه فى استخفاء وسرعة .

تحدث القرآن الكريم فى آيات متعددة عن قصة بناء المسجد الحرام . وعن أمر الله - تعالى - لإبراهيم بذلك ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى ، قوله - تعالى - فى سورة الحج : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ [الآيات ٢٦ - ٢٩] .

وقوله - تعالى - : ﴿ بوأنا ﴾ من التبوأ ، بمعنى النزول فى المكان . يقال : بوأته منزلا ، أى : أنزلته فيه ، وهيأته له ومكنته منه .

قال بعض العلماء : « والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج ، كنست ما فوق الأساس ، حتى ظهر الأساس الأول الذى كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه .. وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من جرهم . وغاية مادل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له ، وعرفه إياه ليبنيه فى محله .

وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ، ولم يكن له وجود من قبله . وظاهر قوله - تعالى - على لسان إبراهيم : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ... ﴾ يدل على أنه كان مبنيا واندرس ، كما يدل عليه - أيضا - قوله هنا « مكان البيت » ، لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان معروفا عند بعض الناس .. [تفسير أضواء البيان حـ ٥ ص ٦٢ للشيخ الشنقيطى] .

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن هيأنا لإبراهيم - عليه السلام - مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناه بعدم الاشراك بنا ، وأمرناه بإخلاص العبادة لنا ، كما أوصينا - أيضا - بأن يطهر هذا البيت الحرام من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهيأ ومعدا للطائفين به ، وللقائمين فيه لأن الصلاة وغيرها من العبادات ، وقد جاء من هذه الآية أنه لايجوز أن يترك عند البيت الحرام ، قذر من الأقذار ، ولا نجس من الأنجاس المعنوية أو الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب مالا يرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

ثم ذكر - سبحانه - ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

والأذان : الإعلام . و ﴿ رجالا ﴾ أى : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل . يقال : رجل فلان يرجل - كفرح يفرح - فهو راجل ، إذا لم يكن معه ما يركبه .

والضامر : البعير المهزول من طول السفر . وهو اسم فاعل من ضمر - بزنة قعد - يضمر ضمورا فهو ضامر ، إذا أصابه الهزال والتعب .

والفج فى الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل فى الطريق المتسع . والمراد به . هنا : مطلق الطريق وجمعه فجاج . والعميق : البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قوله : بئر عميقة ، أى : بعيدة الغور .

والمعنى : وأعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج ، يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد .

قال الإمام ابن كثير : أى : وناد يا إبراهيم فى الناس داعياً إياهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب ، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم ؟ فقيل له : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر ، وقيل على الصفا .. وقال : أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض .. وأجابه كل شىء سمعه : لبيك اللهم لبيك » [تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤١٠] ثم بين - سبحانه - جانبًا من المنافع التى تعود عليهم من أدائهم لفريضة الحج فقال ﴿ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .... ﴾ .

أى : يأتوك - يا إبراهيم - الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد . ليحصلوا منافع عظيمة لهم فى دينهم وفى دنياهم .

من مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا الله عنهم ، ومن مظاهر منافعهم الدنيوية ، اجتماعهم فى هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء ، وغير ذلك من أنواع المعاملات التى أحلها الله - تعالى - وقوله - سبحانه - ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .. ﴾ معطوف على ما قبله .

والمراد بالأيام المعلومات ، الأيام العشرة الأولى من شهر ذى الحجة ، أو هى أيام التشريق .. والمراد ببهيمة الأنعام ، الإبل والبقر والغنم .

أى ليشهدوا منافع لهم ، وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته فى تلك الأيام المباركة ، وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التي يتقربون إليه - سبحانه - عن طريق ذبحها ، وإراقة دمائها ، استجابة لأمره - تعالى ..

وقوله : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ إرشاد منه - سبحانه - إلى كيفية التصرف فيها ، أى « فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أى : الذى أصابه بؤس ومكروه ، إلى جانب فقره واحتياجه .

ثم بين - سبحانه - ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

أى : ثم بعد حلهم ، وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك ، فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم وليطوفوا طواف الإفاضة . بهذا البيت القديم ، الذى كلف الله - تعالى - عبده ورسوله إبراهيم ببنائه .

وفى سورة البقرة آيات كريمة تحدثت عن مكانة البيت الحرام وعن قصة بنائه ، وعن الدعوات الخاشعات التى كان يتضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه عند بنائه البيت - فقال - تعالى - ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من

البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (الآيات ١٢٥ - ١٢٨) .

وقوله - تعالى : ﴿ مثابة للناس ﴾ : أى : مرجعًا للناس يرجعون إليه من كل جانب وصيرنا بيتنا الحرام وكعبتنا المشرفة مرجعا للناس وملجأ لهم ، وموضع أمانهم واطمئنانهم من كل خوف وفزع .

كما قال - سبحانه : ﴿ ومن دخله كان آمنا .. ﴾ .

وقوله - تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ تشريف للمكان الذى كان إبراهيم يقوم عليه عند بنائه للمسجد الحرام .

فالمراد بمقام إبراهيم : الحجر الذى كان إبراهيم - عليه السلام - يقوم عليه خلال بنائه للكعبة ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح عند جابر ابن عبد الله . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - طاف بالبيت سبعاً ، وصل خلف المقام ركعتين .

قال الإمام ابن كثير : وقد كان هذا المقام - أى : الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملصقًا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر على يمين الداخل من الداخل فى البقعة المستقلة هناك - وكان الخليل إبراهيم - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضع هذا الحجر إلى جوار الكعبة .

إن الذى يتدبر قصة إبراهيم - عليه السلام - كما وردت فى القرآن الكريم ، يجد فيها كثيرًا من الفضائل التى منحها الله - تعالى - لنبيه إبراهيم ، كما يجد فيها كثيراً من العبر والعظات ، ومن الأحكام

والآداب ، ومن ذلك مايأتى :

١ - إمامته للناس :

وهذه الإمامة التى منحها الله - تعالى - لإبراهيم - عليه السلام - نراها واضحة جلية فى قوله - سبحانه - : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى ، قال لاينال عهدى الظالمين ﴾ « سورة البقرة : الآية ١٢٤ » .

والابتلاء : الاختبار ، أى : اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهى .

والله - تعالى - يختبر عباده بالضراء ليصبروا ، ويختبرهم تارة بالسراء ليشكروا ، وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها . قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة .. ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله - تعالى - بها ونبيه إبراهيم وعلى أقوال ، لعل أفضلها أن المراد بها التكاليف الشرعية التى كلف - سبحانه - بها نبيه إبراهيم - عليه السلام .

قال الإمام ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية : « ولم يصح فى ذلك - أى : فى المراد بهذه الكلمات - خبر يجب التسليم له .. ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات ، أنها الأوامر التى كلفه الله بها ، فأتى بها على أتم وجه » .

وقوله سبحانه - ﴿ فأتمهن ﴾ أى : فأتى بهن على الوجه الأكمل ، وأداهن أداء تاما يليق به ، ولذا مدحه الله - تعالى - بقوله : ﴿ إبراهيم الذى وفى ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾ بيان للثمرة التى ترتبت على امتثال إبراهيم لأمر ربه ، وعلى وفائه بعهده بدون تراخ أو إبطاء .

أى : قال الله – تعالى – لإبراهيم على سبيل المكافأة له بعد أن أدى ما كلفه به أداء تاما : إنى جاعلك للناس إماما يأتمون بك ، ويقتدون بأقوالك وأفعالك والمراد بالإمامة هنا : الرسالة والنبوة ، فإنهما أكمل أنواع الإمامة .

وقال سبحانه : ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ ولم يقل إنى جاعلك للناس رسولا ، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم – عليه السلام – قد رحل إلى آفاق كثيرة ، فتنقل من بلاد الكلدان ، إلى العراق ، وإلى الشام ، وإلى مصر ، وإلى الحجاز ، وكان فى جميع الأماكن التى حل بها أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

وقوله – سبحانه : ﴿ قال ومن ذريتى ﴾ حكاية لما رد به إبراهيم على ربه بعد أن صيره للناس إماما .

أى : قال إبراهيم : كما جعلتنى يا إلهى بفضلك وكرمك للناس إماما ، اجعل من ذريتى – أيضًا – من هو كذلك ، فإنى أحب أن يكون من ذريتى الأئمة للناس .

وهذا يدل على أن إبراهيم – عليه السلام – لم يكن يحب الخير لنفسه فقط ، بل كان يحبه – أيضاً – لذريته .

وقوله – تعالى – : ﴿ قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ حكاية لما رد به سبحانه – على إبراهيم .

ومن الآيات التى تدل على أن الله - تعالى - قد جعل فى بعض ذرية إبراهيم الإمامة التى هى بمعنى النبوة والرسالة قوله - تعالى - : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ [سورة العنكبوت ، ٢٧] ومن الآيات التى تدل على أن من ذريته المحسن والظالم قوله - سبحانه - ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [سورة الصافات : الآيات ١١٢ ، ١١٣] .

هذا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة وهى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات .. ﴾ أن إبراهيم - عليه السلام - قد أدى ما كلفه الله - تعالى - به أداء كاملاً ، وأنه - سبحانه - قد كافأه على ذلك بأن صيره للناس إمامًا ، وأنه - عليه السلام - كان يحب الخير لذريته كما يحبه لنفسه ، وهذا شأن الأخيار الأصفياء الأنقياء ، وأنه قد التزم آداب السؤال ، فهو لم يطلب الإمامة لجميع ذريته ، بل طلبها للصالحين منهم فقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ ولفظ ﴿ من ﴾ هنا للتبعيض أى وألتمس الإمامة لبعض ذريتى .

كما يؤخذ منها أن الظالمين ليسوا أهلا للإمامة ، حتى ولو كانوا من نسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وفى ذلك تنفير من الظلم والظالمين ، وتحريض على سلوك طريق الاستقامة والصلاح ، وبيان لسنة من سنن الله التى لا تتغير ولا تتبدل وهى أن الإمامة للصالحين لا للظالمين لأنهم ليسوا أهلا للاقتداء بهم ، كما يؤخذ من هذه الآية - أيضا - أن

منزلة الإنسان عند ربه ، تكون بمقدار قيامه بما أوجبه - سبحانه - عليه من تكاليف ، وبمقدار إخلاصه وسرعته فى أداء هذه التكاليف التى هى لون من الاختبار والابتلاء ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

٢ - اصطفاء الله - تعالى - له فى الدنيا :

اختيار الله - تعالى - عبده إبراهيم - عليه السلام - لدعوة الناس إلى اتباع الحق ، جاء فى آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [سورة البقرة : الآيات ١٣٠ - ١٣٢] .

أى : لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله إلا من امتهن نفسه واستخف بها ، وظلمها بسوء رأيه ، حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة .

يقال : رغب فلان فى كذا إذا أراده ، ورغب عن كذا إذا كرهه والملة فى الأصل : الطريقة - وغلب استعمالها فى أصول الدين ، وسفه نفسه ، أى : أمتهنها ، وقوله سبحانه - ﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ : ثناء عظيم من الله - تعالى - على نبيه إبراهيم - عليه السلام .

أى : والله لقد اخترنا إبراهيم لحمل رسالتنا فى الدنيا إلى الناس ، وهدايتهم إلى طريق الحق ، وأنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى ، المبشرين برضا الله - تعالى - ومثوبته وجنته .

ثم بين – سبحانه – السبب فى هذا الاصطفاء والصلاح فقال : ﴿ إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين ﴾ .

أى : أن هذه المكانة العالية لإبراهيم سببها أن ربه حين أمره بإسلام وجهه إليه ، وإخلاص العبادة له ، امتثل أمر ربه بكل سرعة وإخلاص ، وقال أخلصت عبادتى وطاعتى لك يارب .

وشبيه بهذه الآية قوله – كما حكى القرآن عنه – ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩].

وقوله – تعالى – ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

وقوله – عز وجل – ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ [سورة النساء : الآية ١٢٥].

ثم بين – سبحانه – أن إبراهيم – عليه السلام – مع كماله فى نفسه ، كان يعمل على تكميل غيره ، ودعوته إلى إخلاص العبادة لله . فقال : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

أى أن إبراهيم لم يكتف بإسلام وجهه لله – تعالى – ، بل وصى أبناءه باتباع ملته ، التى هى دين الإسلام ، ويعقوب كذلك وصى نبيه باتباعها ، فقال كل منهما لأبنائه : يا بنى إن الله اصطفى لكم دين الإسلام ، الذى لا يقبل الله دينا سواه ، وما دام الأمر كذلك ، فاثبتوا على هذا الدين ، حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون عليه .

جمعه لأطراف الخير

وهذه الصفة نراها واضحة جلية فى قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ، شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ (سورة النحل : الآيات ١٢٠ - ١٢٣) .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله تعالى - قد وصف خليله إبراهيم ، بجملة من الصفات الفاضلة ، والمناقب الحميدة .

وصفه - أولا - بأنه ﴿ كان أمة ﴾ ولفظ ﴿ أمة ﴾ يطلق بإطلاقات متعددة : منها « الجماعة » كما فى قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون .. ﴾ أى : وجد موسى - عليه السلام - عند ماء مدين جماعة من الناس يسقون دوابهم ..

ومنها : الدين والملة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة .. ﴾ أى : على دين وملة ، ومنها ، الحين والزمان ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ أى : إلى فترة محدودة من الزمان .

والمقصود بقوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ أى : كان عنده من الخير ما كان عند أمة من الناس ، فقد كان إماماً يقتدى به فى وجوه الطاعات ، وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى إرشاد الناس إلى أنواع البر ..

ووصفه - ثانيا - بأنه كان ﴿ قانتاً لله ﴾ أى مطيعاً لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، من القنوت ، وهو الطاعة مع الخضوع . ووصفه -

ثالثا - بأنه كان ﴿ حنيفا ﴾ أى : مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، من الحنف وهو الميل إلى الحق ، بخلاف الجنف فهو الميل إلى الباطل .

ووصفه - رابعا - بأنه منزه عن الشرك فقال : ﴿ لم يك من المشركين ﴾ .

ووصفه خامسا - بالشكر لنعم الله ، بمعنى استعمالها فيما خلقت له فقال : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ أى : معترفاً بفضل الله ، ومستعملاً نعمه فيها يرضيه .

ووصفه سادسا - بأنه ممن أختارهم - سبحانه - لحمل رسالته فقال : ﴿ اجتباه ﴾ أى : اختاره واصطفاه للرسالة .

واجتباه الله لعبده معناه : اختصاصه بخصائص يمنحه إياها بدون كسب منه ، ووصفه - سابعا - بأنه من الذين هدوا إلى الصراط المستقيم فقال : ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ ووصفه ثامنا بأنه من السعداء فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - هذه المناقب الحميدة لإبراهيم عليه السلام بأنه أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

والمراد بالاتباع هنا : اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم لأبيه إبراهيم فى التوحيد وفى أصول الدين الثابتة فى كل الشرائع ، لا فى الفروع التى تختلف من شريعة إلى أخرى ، كما قال - سبحانه :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

أي : ثم أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك ما كان عليه أبوك إبراهيم - عليه السلام - الذى نبذ كل لون من ألوان الإشراك بالله تعالى قال - تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. ﴾ (سورة الحج الآية ٧٨) .

قال الإمام القرطبى : وفى قوله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدى إلى الصواب ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء ، ومع ذلك فقد أمره الله تعالى بالاقتداء بهم فقال : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .. ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٠) .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وصفت سيدنا إبراهيم عليه السلام - بأفضل الصفات ، وأكمل المناقب ، وأكرم الأخلاق .

٥ - إجابة دعائه :

من أبرز ما يلفت النظر ، ويحمل على الاعتبار والاتعاظ فى قصة إبراهيم - عليه السلام - أنها زاخرة بتلك الدعوات الخاشعات التى حكاها القرآن الكريم على لسانه ، وهو يتضرع بها إلى الله تعالى ، ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن قصة إبراهيم - عليه السلام - هى أكثر قصص القرآن اشتمالاً على جوامع الدعاء .

ففى سورة البقرة - الآيات من ١٢٦ حتى ١٢٩ - نجد نماذج من

الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، وتبدأ هذه الدعوات بقوله – تعالى – حكاية عنه : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا ﴾ .

أى : قال إبراهيم مناجيا ربه : يارب اجعل مكة بلدا آمنا من كل فزع ، لأن بها بيتك الحرام ، الذى جعلته مثابة للناس ، أى : يرجعون إليه بين الحين والحين ، والذى جعلته مكان أمنهم واطمئنانهم على نفسهم وأموالهم وأعراضهم .

أما الدعوة الثانية التى توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة ، فقد حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .

أى : كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا البلد آمنا ، أسألك كذلك أن ترزق أهله من الثمرات النافعة ما يسد حاجتهم ، ويغنيهم عن الاحتياج إلى غيرك .

وأما الدعوة الثالثة فقد تضرع بها خلال بنائه للبيت الحرام ، فقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

أى واذكر – أيها العاقل – ما صدر من هذين الرسولين الكريمين من دعوات خاشعات ، فقد كانا يقولان وهما يقومان برفع قواعد الكعبة ، يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا إنك أنت السميع لما تنطق به ألسنتنا ، العليم بسرنا وعلننا .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جملة من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم

واسماعيل إلى الله فقال : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ أى : خاضعين ومذعنين لك ، ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ﴾ أى : علمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا ﴿ وتب علينا ﴾ أى : وفقنا للتوبة الصادقة واقبلها منا ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما ، بتلك الدعوة التى فيها خيرهما فى الدنيا والآخرة فقالا كما حكى القرآن عنهما : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

أى : ونسألك يا ربنا أن تبعث فى ذريتنا رسولاً منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك ، ويرشدهم إلى ما فيه من أحكام وآداب . ويهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك وفى الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح ، ويطهرهم من الفسوق والعصيان ، إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم .

ولقد حقق الله - تعالى - لهذين النبيين الكريمين دعواتهما ، فأرسل فى ذريتهما رسولاً منهم ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى كانت رسالته رحمة للعاملين .

وقد أخبر - صلى الله عليه وسلم - أنه دعوة إبراهيم فقال : « أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين » .

وفى سورة إبراهيم فى الآيات من ٣٥ إلى ٤١ نجد نماذج أخرى من تلك الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ..

وتبدأ هذه الآيات بقوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد ﴾ - أى : مكة - آمنا ، ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ أى : وأبعدنى - يا إلهى - أنا وذريتى عن عبادة الأصنام .

﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ أى : يارب لقد تضرعت إليك أن تعصمنى وأبنائى من عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق .

وهب الله - تعالى - نبيه إبراهيم - عليه السلام - كما وهب غيره من الأنبياء ، العقل الراجح ، والذهن الثاقب ، والبصيرة المستنيرة ، والحجة الدامغة التى يكر بها على باطل المبطلين فإذا هو زاهق .

ويتجلى ذكاء إبراهيم - عليه السلام - وفطنته ، فى كل مواقفه مع قومه وهو يدعوهم إلى وحدانية الله تعالى - وينهاهم عن عبادة الأصنام ، إلا أن أعظم هذه المواقف فى الدلالة على حضور بديهته ، وفرط ذكائه . وقوة حجته ، ذلك الموقف الذى حكاه القرآن الكريم فى قوله - تعالى - ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق . فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٥٨] .

إن الآية الكريمة قد حكت لنا لونا من المخاصمة والمجادلة التى دارت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين ذلك الملك الجبار المغرور بملكه وسلطانه .

إن إبراهيم - عليه السلام - يدعوه إلى إخلاص العبادة لله -

تعالى - ويبرهن له على صحة ذلك بأن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يملك الإحياء والإماتة ، فيقول له : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ أى ربى هو الذى ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها ، وأنت وغيرك تشاهدون ذلك مشاهدة لا ينكرها عاقل ولكن ذلك الملك الجاحد لم يقتنع بهذا القول مع وضوحه وصدقه ، بل رد على إبراهيم بتطاول وغرور فقال : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ .

أى : قال الطاغية لإبراهيم فى صلف واستعلاء : أنا - أيضا - أحيى وأميت ، بأن أترك المحكوم عليه بالقتل ، وأقتل البرىء .

وهنا نجد إبراهيم - عليه السلام - لا يريد أن يدخل مع هذا الطاغية فى حوار عقيم ، بل قال له بسرعة خاطفة ، وبكلمة حاسمة تدل على ذكائه وثباته وفطنته : ﴿ إن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ﴾ .

فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الناصعة ، والضربة القاصمة التى وجهها إبراهيم إلى ذلك الملك الجبار ؟ كانت النتيجة كما نطق القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى : فغلب وقهر .. وتحير وانقطع عن حجاجه ذلك الملك الكافر .

وهكذا نرى ذكاء إبراهيم وفطنته فى هذه المحاورة التى حكاها القرآن الكريم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

كرمه وسخاؤه

صفة الكرم والسخاء ، من الصفات التى حكاها القرآن الكريم عن إبراهيم - عليه السلام - فى مواطن كثيرة ، منها قوله - تعالى - ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ [سورة هود : الآية ٦٩] .

أى : ولقد جاءت ملائكتنا بالبشارة السارة لنبينا إبراهيم ، وهى إخباره بمولد غلام له هو إسحاق - عليه السلام - فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عن إكرامهم - مع عدم معرفته بهم وبالشىء الذى جاءوا من أجله - بل سارع إلى أهله فجاءهم بعجل صغير من البقر ، مشوى على الحجارة المحماة فى باطن الأرض .

ولاشك أن فعله هذا يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة تعجيل قرى الضيف .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الذاريات - الآيات : ٢٤ - ٢٩ : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ .

أى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - نبأ الضيوف الذين جاءوا إلى إبراهيم - عليه السلام - فأكرمهم غاية الإكرام ؟ إننا فيما أنزلنا عليك من قرآن نقص عليك نبأهم بالحق ، لقد دخلوا عليه

فقالوا له على سبيل التحية : نسلم عليك سلاما ، فرد عليهم بتحية خير من تحيتهم ، حيث قال لهم بما يدل على الدوام والثبات : عليكم منى السلام ، مع أنى لا أعرفكم .

وفى سرعة وبدون إبطاء ، ذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه ، فجاء إليهم بعجل ممتلئ لحما وشحما ، فقربه بين أيديهم ، وحضهم على الأكل منه ، فلما رآهم لا يأكلون شعر بالخوف منهم ، فطمأنوه وقالوا له : لا تخف وبشروه بغلام كثير العلم ، وهو إسحاق - عليه السلام .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإن إبراهيم جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام ، بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما عنده وهو عجل سمين مشوى ، وقربه بين أيديهم ، وقال لهم بكل أدب وتلطف وحسن عرض ﴿ ألا تأكلون ﴾ من طعامى .

والحق أن إبراهيم - عليه السلام - كان مثالاً رائعاً للسخاء الجم ، وللكرم العظيم ، وما أحوج المسلمين إلى التخلق بهذا الخلق السامى .

من الفضائل التى منحها الله - تعالى - لرسوله إبراهيم - عليه السلام - إلهامه الرشد ، والحرص على ما يزيده إيمانًا على إيمانه ، ويقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته .

ونرى ذلك واضحا فيما حكاه القرآن عنه فى قوله - تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٦٠] .

وقد ذكر المفسرون سبب سؤال إبراهيم أقوالاً منها : أنه لما قال للنمرود : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ ورد عليه النمرود بقوله : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ أراد إبراهيم – عليه السلام – أن يترقى فيرى كيف يحيى الله الموتى .

وفى قوله : ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ تصريح بكمال أدبه مع خالقه ، فهو قبل أن يتضرع إليه بالدعاء ، يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، مع عدم شكه إطلاقا فى قدرة الله – تعالى – أو فى صحة البعث وكيف يشك وهو رسول من أولى العزم من الرسل ؟ وانماهو يريد الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة اليقين ومن درجة البرهان إلى درجة العيان فإن المعاينة والمشاهدة تغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن قال إبراهيم لربه : يارب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى بعد موتهم ؟ فاجابه ربه بقوله : أتقول ذلك يا إبراهيم على سبيل الشك فى قدرتى ؟ فبادر إبراهيم بنفى الشك فى قدرة الله – تعالى – عن قلبه وأجاب بقوله : حاشاى ياإلهى أن أفعل ذلك فأنا مؤمن أرسخ الايمان بقدرتك على كل شىء ، ولكن سألت هذا السؤال ليزداد فؤادى سكونا ، ونفسى اطمئنانا ، وقلبى إيمانا ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكوناً أعمق ، واطمئنانا أشد ..

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شاكا فى إحياءالله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا جاء فى الحديث :

« ليس الخبر كالمعاينة » ..

وأما قول الرسول - ﷺ « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فمعناه : أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لا نشك ، فإبراهيم أحرى بألا يشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم - عليه السلام ..

[تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٩٧]

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما رد به سبحانه - على عبده إبراهيم فقال :

﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ . أى : قال الله تعالى - لنبيه إبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه ، فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن ، ثم اذبحهن وقسمهن أجزاء . ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءا من كل طائر من تلك الطيور ، ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك .

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره جـ ٧ صـ ٤٤ : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية : قطعهن . وأن إبراهيم قطع أعضاء هذه الطيور ولحومها وريشها وخلط بعضها ببعض ، وفعل كما أمره الله . ثم قال لهن تعالين بإذن الله ، فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله .. »

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ .

أى : واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ،

حكيم فى كل شئونه وأفعاله .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقت أبلغ الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى حرص إبراهيم - عليه السلام - على أن يزداد إيمانا ، ويقينا على يقينه .

تكليفه ببناء المسجد الحرام :

لقد أخبرنا الله - تعالى - أن المسجد الحرام هو أول بيت وضعه - سبحانه - فى الأرض ليكون مكانا لعبادته .

قال - تعالى -: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ [سورة آل عمران] .

أى : أن أول بيت وضعه الله - تعالى - فى الأرض ليكون متعبدا لهم ، هو البيت الحرام الذى بمكة والذى من صفاته : أنه كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره ، أو اعتكف فيه ، أو طاف به ..

وأنه بذاته مصدر هداية للعالمين ، لأنه قبلتهم ومتعبدهم .. و أنه مشتمل على علامات واضحات تدل على شرفه وعلو مكانته ، ومن هذه العلامات : وجود مقام إبراهيم بداخله ، أى : وجود المكان الذى كان يقوم فيه إبراهيم تجاه الكعبة لعبادة الله - تعالى - ولإتمام بنائها .

وأيضا من هذه العلامات الدالة على شرف هذا البيت : أن من دخله كان آمناً -

أي : أن من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل ..

كذلك مما يدل على شرف هذا البيت ، وسمو منزلته : أن الله - تعالى - جعل الحج إليه فرضا على كل مستطيع لذلك مرة و احدة فى العمر ، ومن قصر فى أداء هذه الفريضة مع قدرته على أدائها ، فإن الله غنى عنه وعن الناس أجمعين .

هذا جانب من حديث القرآن عن مكانة البيت الحرام ، وعن شرفه ، وعن سمو منزلته ، ولاشك أن بيتا هذه مكانته لا يعهد الله فى بنائه إلا إلى من رضى عنهم ورضوا عنه .

استعمل إبراهيم - عليه السلام - فى دعوته الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - أنجح الأساليب ، وأحكم الطرق ، وخير الرسائل التى تهدى إلى الرشد .

كما استعمل مع كل مخاطب الخطاب الذى يقتضيه حاله ، والمنطق الحكيم الذى يوصل إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .

فأنت تراه وهو يدعو أباه إلى وحدانية الله - تعالى - يخاطبه بأرق عبارة ، وبألطف إشارة ، وبأبلغ بيان فيقول له : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ [سورة مريم : الآيات ٤٢ - ٤٥] .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين

والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلك أنه طلب منه - أولا - العلة فى خطئه .. طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، حيث عبد ماليس به حس ولا شعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق ، مترفقا به متلطفا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال له : إن معى طائفة من العلم ، وشيئاً منه ليس معك .

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل - ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لا صق به ، ولكنه قال له : إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن .. وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : يا أبت ، توسلاً واستعطافاً » [تفسير الكشاف : جـ ٣ صـ ١٩] وهكذا نرى أن إبراهيم - عليه السلام - لم تمنعه الأبوة ، من أن ينكر على أبيه ما هو فيه باطل ، ليعلمنا أنه ليس من الأدب مع الأباء تركهم وما هم فيه من ضلال ، ولئن كان هذا الإنكار ينصب على الآباء ، إلا أنه محل رضا الخالق - عز وجل - وحقه - سبحانه - فوق حقوق الآباء ، وإرشاد الآباء والأقارب إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، مقدم على إرشاد غيرهم .

فإذا ما انتقلنا إلى جدال إبراهيم - عليه السلام - للطاغية الذى آتاه الله الملك فبطر واغتر وتكبر وجحد الحق .. نراه يجادله بأسلوب آخر ، بأسلوب يحمل الحجة القاصمة التى تجعل ذلك الطاغية يقف حائراً مبهوتا ، فقد قذفه إبراهيم - عليه السلام - بالحجة التى لا تقبل

الجدل ، ولا تتحمل التأويل ، حيث قال له : ﴿ إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ... ﴾ .

وبذلك أثبت إبراهيم المقدرة العظيمة فى إفحام خصمه ، وفى بيان أن المستحق للعبادة والطاعة ، إنما هو الله رب العالمين .

أما منهجه فى دعوته قومه إلى عبادة الله تعالى – ، وإلى نبذ عبادة الأصنام ، فقد سلك فيه طرقا شتى :

منها : استدراجهم إلى الإقرار بوحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له ، عن طريق المشاهدة والمعاينة ، فقد قال لقومه بأسلوب التهكم عندما جن عليه الليل ورأى نجماً ﴿ قال هذا ربى ﴾ ، فلما غاب ذلك النجم قال ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ ، أى : لا أحب أن أعبد إلها يظهر حينا ويغيب حينا ﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ .

أى . قال مسمعاً قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى الحق ، لأكونن من القوم الضالين الذين يعبدون ما ينير بعض الوقت ، ويغيب البعض الآخر .

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

وهكذا نرى إبراهيم – عليه السلام – قد سلك مع قومه طريق الترقى والمشاهدة ، فى الدلالة على وحدانية الله ، وعلى أنه المستحق للعبادة ، لأنه أثبت لهم أن تلك الكواكب التى كان قومه يعظمونها إلى جانب عبادتهم للأصنام ، لا تصلح أن تكون إلها ، لأن هذه الكواكب

تغيب وتظهر ، ولأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها ما يؤذيها ، ولذا قال لهم : إنى توجهت فى عبادتى إلى الله - تعالى - وحده ، وما أنا من الذين يشركون معه آلهة أخرى فى العبادة .

ومنها : استخفافه بتلك الأصنام ، واحتقاره لها ، ولمن يقيم وزناً لصورتها أو هيئتها أو ذاتها ، ونرى ذلك فى آيات كثيرة .

ففى سورة الأنبياء نراه يقول لأبيه وقومه على سبيل الاستهزاء : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ .

ثم يقول لهم : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ ثم يدعوهم إلى نبذها ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده فيقول لهم : ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ وفى سورة الشعراء يقول لهم على سبيل التهكم بتلك الأصنام : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ ؟

ثم يعلن عداوته لتلك الأصنام فيقول : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ... ﴾ وفى سورة الصافات نراه يصف آلهتهم بأنها إفك وكذب ، وأن عبادتنا اعتقاد باطل ، وتصرف أحمق يدل على الجهل والغباء فيقول لهم ، ﴿ ماذا تعبدون . أإفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين .. ﴾ .

ومنها : إعلان براءته وعداوته السافرة لقومه ولمعبوداتهم الفاسدة ، وأنه مصمم على هذه البراءة والعداوة ومستمر عليها إلى أن يقلعوا عن عبادتهم لتلك الأصنام ، ويعودوا إلى عبادة خالقهم ورازقهم فيقول لهم :

﴿ إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ [الزخرف ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧] .

ويقول لهم فى موطن آخر : ﴿ إنا بُرَءَاءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .. ﴾ [الممتحنة : ٤] ثم تراه أخيرا لا يكتفى بالاستنتاج والمشاهدة ، ولا بالتهكم من الأصنام وعابديها ، ولا بالعداوة والبراءة من الجميع بل يقسم - ويبر فى قسمه - بأنه سيحطم هذه الأصنام فيقول لقومه : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ... ﴾ [الأنبياء : ٥٧ ، ٥٨] وهكذا نجد إبراهيم ، عليه السلام - لم يترك وسيلة يتوقع عن طريقها هداية أبيه وقومه إلا سلكها ، وبذل فى سبيل هذه الهداية كل ما يملكه من عقل راجح ، ومن منطق رصين ، ومن حجة بليغة ، ومن فطنة نادرة ، ومن شجاعة خارقة ، ومن صبر جميل .

حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه أظهر حجة الله - تعالى - فى التوحيد ونصرها ، وذب عنها ، عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه :

فأولها : قوله : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيها : أنه - تعالى - خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية ، وهى قوله - سبحانه - : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ .

وثالثها : أنه جعله عزيزا فى الدنيا ، وذلك لأنه - تعالى - جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته ، وأبقى هذه

الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور : علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والصالحين .. [تفسير الفخر الرازى جـ ٤ جـ٨٢] وجمهور المفسرين على أن الضمير فى قوله – تعالى : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب .. ﴾ يعود على إبراهيم – عليه السلام ، لأن الكلام فى شأنه ، وفى شأن النعم التى منحها الله إياه .

أى : وجعل الله من ذريته إبراهيم – عليه السلام – هؤلاء الأنبياء الكرام ، داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا – عليهم الصلاة والسلام .

وفى سورة مريم ، بعد أن حكى – سبحانه – ما قاله إبراهيم لأبيه ، وما رد به أبوه عليه ، نجد قوله – تعالى – حكاية عن إبراهيم : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ [الآيات ٤٨ – ٥٠] .

رأى : وقال إبراهيم لأبيه بعد أن رأى تصميمه على الكفر : إننى بجانب استغفارى لك ، فإنى – أعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادتكم للأصنام ، وارتحل إلى أرض الله الواسعة بعيداً عنكم .. فلما فعل إبراهيم ذلك : وهبنا له إسحاق ويعقوب بعد أن فارق أباه وقومه ، ليأنس بهما ، ولك واحد منهما جعلناه نبيا .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين . والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية .

وفى سورة الأنبياء ما يؤكد هذا المعنى ، فبعد أن قص علينا القرآن الكريم المحاورات الطويلة التى دارت بين إبراهيم وقومه وما أتبع ذلك من إلقائهم به فى النار .

بعد كل ذلك قال سبحانه – : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ [الآيات ٧١ – ٧٣] .

أى : ونجينا إبراهيم – عليه السلام – مما أضمره له قومه من سوء ، وأخرجناه ومعه ابن أخيه لوط – عليه السلام – من أرض العراق إلى أرض الشام والتى جعلناها مهبطا للوحى ، ومكانا للرسل الكرام لمدة طويلة ، ووهبنا لإبراهيم يعقوب زيادة على إسحاق ، وجميعهم من عبادنا الصالحين . وجعلناهم أئمة فى الخير ، وأوصينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا غيرهم بفعلها ، كما أمرناهم بالمحافظة على الصلاة والزكاة ، فامتثلوا أمرنا وكانوا من عبادنا الذين أخلصوا لنا الطاعة والعبادة .

فالآيات الكريمة قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله – تعالى – رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة والذرية الصالحة .

قصة يوسف عليه السلام

قصة يوسف - عليه السلام - قد وردت فى القرآن الكريم فى سورة كاملة تسمى سورة « يوسف » ، وكان نزول هذه السورة على النبى - صلى الله عليه وسلم - قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، أى : أنها من السور المكية الخالصة وقد ورد فى سبب نزولها - روايات متعددة منها : ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : أنزل القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فتلاه على أصحابه زمانا ، فقالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت سورة يوسف ، وعدد آياتها : إحدى عشرة ومائة آية ، ويغلب على الظن أن نزولها على النبى - صلى الله عليه وسلم - كان فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ، والتى اشتد فيها الأذى الذى أنزله المشركون بالنبى - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة - رضى الله عنها ..

فكان نزول هذه السورة فيه ما فيه من التسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم -عما أصابه من قومه ، حيث قصت عليه ما فعله إخوة يوسف به ، وما تعرض له هذا النبى الكريم من كيد وحقد ، ومن أذى واضطهاد ، ومن دسائس ومؤامرات ..

والذى يتدبر سورة يوسف ، يراها قد قصت علينا قصته مع إخوته

ومع غيرهم بأسلوب مشوق حكيم ، يهدى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التى لا يعلمها إلا الله - تعالى - ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا .

كما يراها قد ساقت ما ساقت من حكم وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، والدقة المتناهية فى إبراز تسلسل الأحداث .

لقد تحدثت السورة الكريمة فى مطلعها عن رؤيا يوسف ، وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه .

ثم قصت علينا ما دار بين إخوة يوسف بشأنه من مكر وحسد ، وإجماعهم على أن يلقوا به فى الجب ، وتنفيذهم لذلك بعد خديعتهم لأبيهم .

ثم حدثتنا عن انتشال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بأن تكرم مثواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التى راودته عن نفسه . ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعما فعلته .. مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لجوء يوسف إلى ربه يسأله النجاة من كيد هؤلاء النسوة . ثم حدثتنا بعد ذلك عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أن السجن لن يمنعه من دعوة رفاقه فى السجن إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

ثم حكت لنا تلك الرؤيا المفزعة التى رآها الملك ، وكيف أن يوسف - عليه السلام - قد فسرها له تفسيرا حكيما صحيحا أدى تنفيذه إلى ما فيه الخير والصلاح ..

ثم فصلت السورة حديثها عن اللقاءات التى تمت بين يوسف واخوته بعد فراق طويل ، وحكت ما دار فى هذه اللقاءات من محاورات ومجادلات ، وانتقلت بلقاء يوسف مع أبيه وإخوته ، وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

– ولنبدأ السير مع السورة الكريمة من أولها ، لنرى ما اشتملت عليه من حكم حكيمة ، ومن تشريعات قوية ، ومن قصص يشهد بأن هذا القرآن من عند الله – تعالى – .

لقد افتتحت السورة الكريمة بقوله – سبحانه – ﴿ آلر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ [الآيات ١ – ٦] .

وقوله – سبحانه : « آلر » من الحروف المقطعة التى اختتمت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ، وأقرب الأقوال إلى الصواب منها : أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

الله – تعالى – يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ،

ومنظومًا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا سورة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خائبين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى .

وقوله ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أى : تلك الآيات التى نتلوها عليك - يا محمد - فى هذه السورة وغيرها ، هى آيات الكتاب الواضح إعجازه ، الظاهر أمره . ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ .

أى : إنا أنزلنا هذا القرآن الكريم ، بلسان عربى واضح ، على قلب نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لعلكم - أيها المكلفون بالإيمان به - تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهداياته .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها ، فقال : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

والقصص : جمع قصة ، هى الأخبار التى يرد بعضها فى أعقاب بعض ، ويتبع بعضها بعضًا ، أى : نحن - أيها الرسول الكريم - نقص عليك أحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله . بسبب ما أوحينا إليك من هذا القرآن ، والحال أنك كنت قبل أن ننزل عليك هذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .

قال : تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها

أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ [سورة هود : الآية ٤٩] .

وإنما كان القرآن أحسن القصص : لاشتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبر والعظات .

ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثال لأحسن القصص ، فقال - تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبًا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

ويوسف : هو واحد من أنبياء الله الصالحين ، وأبوه هو يعقوب ، وهو كذلك من الأنبياء ، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الكريم بن الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » فهو نبى ، وأبوه نبى ، وجده نبى ، وجد أبيه نبى - عليهم السلاة والسلام - والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قال يوسف لأبيه يعقوب : يا أبت إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا تسجد لى ، ورأيت كذلك الشمس والقمر ساجدين لى .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله : وقد ذكر المفسرون أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، وسفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسير هذا المنام بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين ، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره - وإخوته

بين يديه ، وخروا له سجدا ، وقال : يا ابت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا »

ثم حكى – سبحانه – بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : ﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ .

والكيد : هو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار بالغير ، يقال : كاد فلان فلانا فهو يكيده كيدا ، إذا احتال لإهلاكه .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف – عليهما السلام – بشفقة ورحمة بعد أن سمع منه مارآه فى منامه : يابنى لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه .

وإنما قال له ذلك : لأن هذه الرؤيا ،تدل على أن الله – تعالى – سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما ، ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، وإذا ما قص عليهم رؤياه ، كما خاف من عدوانهم عليه .

وجملة : ﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ واقعة موقع التعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته .

أى لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

أنه يجوز للانسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم .

بعد أن بين – سبحانه – فى الآيات السابقة ما قاله يعقوب لابنه يوسف أتبع ذلك ببيان حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه ، وحالتهم وهم ينفذون مؤامرتهم ، وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا إلى أبيهم ليلاً يتباكون ، فقال – تعالى – ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يَخْلُ لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قومًا صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذًا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ [٧ – ١٥] .

وقوله سبحانه : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ : شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته . والآيات : جمع آية والمراد بها العبر والعظات والدلائل على قدرة الله – تعالى – أى : لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ،

وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، من تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ بيان لما قاله أخوة يوسف فيما بينهم قبل أن ينفذوا جريمتهم . والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو « بنيامين » . وكان أصغر من يوسف ، أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

والعصبة : كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى مأخوذة من العَصْب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أو لأن الأمور تعصب بهم ، أى : تشتد وتقوى .

والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء فى موضعها الصحيح ، وليس المراد به : الضلال فى العقيدة أو الدين .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكربة : ليوسف وأخوه بنيامين ، أحب إلى أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء ، الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وشقيقه بنيامين .. إن أبانا بفعله هذا لفى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء الأقوياء ، النافعين له ، القادرين على خدمته . وهم يقصدون بقولهم هذا ، درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف ، وإلقاء هذا الخطأ على أبيهم الذى فرق بينهم - فى زعمهم - فى المعاملة .

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس فى محله ، لأن يعقوب – عليه السلام – كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب – عليه السلام – كان يوسف أحب إليه من بقية إخوته ، لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة .. ولا لوم على الوالد فى تفضيله بعض أولاده على بعض فى المحبة لأن المحبة ليست مما يدخل تحت وسع البشر [تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٧١] .

ثم أخبر – سبحانه – عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين ﴾ ولفظ ﴿ اطرحوه ﴾ مأخوذ من الطرح ومعناه رمى الشيء وإلقاؤه بعيدًا . والمعنى لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا مع أننا أولى بذلك منهما ، وما دام هو مصرًا على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت فيها غريبًا ، فإن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه إليكم وحدكم » بعد أن كان توجهه إلى يوسف وأخيه ..

وستكونون بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه فى أرض بعيدة قومًا صالحين فى دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك ، فيقبل الله توبتكم ، وصالحين فى دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التى كان يثيرها وجود يوسف بيننا . وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول

التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه ، تتصور الصغائر فى صورة الكبائر ، والكبائر فى صورة الصغائر فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم يستحق إزهاق روح الأخ .

ثم بين - سبحانه - ما اقترحه أحدهم وما استقر عليه رأيهم ، فقال : وقال قائل منهم ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

انتشاله من الجب ، وبيعه بثمن زهيد

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتشاله من الجب ، وعن بيعه بثمن قليل دراهم معدودة ، وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له ، فقال - سبحانه : ﴿ وجاءت سيَّارة فأرسلوا واردهم فأدلى دَلْوه قال يا بُشْرَى هذا غلام وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنَّا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ [الآيات ١٩ - ٢٢] .

فقوله - سبحانه - : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ... ﴾ شروع فى الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته فى الجب .

والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر والوارد : هو الذى يرد الماء ليأخذ منه ما يحتاج إليه هو وغيره .

أى : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب ، وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليشربوا منه ، فوجد جبًّا فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورآه فرح به وقال : يا بشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى : للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل يستحق النداء . أى : يا بشارتى أقبلى فهذا أوان إقبالك .

والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ يعود إلى يوسف . أما الضمير المرفوع فيعود - على الراجح - إلى السيارة وهم جماعة المسافرين . وأَسَرَّ من الإسرار الذى هو ضد الإخفاء والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب ، مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبروه بضاعة خفية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء ، ولعل يوسف قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعًا فى بيعه وفى الانتفاع بثمنه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ : أى : والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من إسرارهم وإخفائهم ومن عملهم السيئ فى حق يوسف ، حيث إنهم اشتروه وباعوه بثمن بخس ، وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم - كما جاء فى الحديث

الصحيح - فهو نبى ، وأبوه نبى ، وجده إسحاق نبى ، وجد أبيه وهو إبراهيم - عليه السلام - نبى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ بيان لما فعله جماعة المسافرين بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضًا من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة وكان هؤلاء المسافرون الذين باعوا يوسف بثمن قليل ، من الزاهدين فى بقائه معهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا .. ﴾ بيان لبعض مظاهر رعاية الله ليوسف - عليه السلام - والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ولقبه القرآن بالعزيز - كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ... ﴾ .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لزوجته « زليخا » : اجعلى فى إقامة يوسف كريما ، وأنزليه منزلاً حسنًا مرضيًا ، وتفقديه بالإحسان إليه لقوله - تعالى : ﴿ مثواه ﴾ من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال ثَوَى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وما كنت ثاويًا فى أهل مدين ... ﴾ أى : وما كنت مقيمًا فيهم .

وقوله : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ﴾ بيان لسبب أمره لها

بإكرام مثواه أي ؛ عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة وأمارات الأدب وحسن الخلق .

قالوا : وهذه الجملة الكريمة ﴿ أو نتخذه ولدًا ﴾ : توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد ثم بين – سبحانه – نعما أخرى أنعم بها على يوسف – عليه السلام – فقال : ﴿ وكذلك مكنَّا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنَّا ليوسف فى أرض مصر حتى صار أهلاً للأمر والنهى فيها ، وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ، واستنارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكًا سليمًا ، ويفسر الرؤى تفسيرًا صحيحًا صادقًا ، والله – تعالى – : متمم ما قدره وأراده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا ينازع منازع ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال والتعبير بقوله – سبحانه – : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ : احتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله من فضله ، ما يجعلهم لا يندرجون فى الكثرة التى لا تعلم ، بل هو – سبحانه – يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم .

ثم بين – سبحانه – مظهرًا آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية فى ذلك ، مأخوذ من الشدة

بمعنى القوة والارتفاع .

أى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، أعطيناه بفضلنا وإحساننا حكمة تجعله موفقًا فى قوله وعمله ، وعلمًا نافعًا ، وفهمًا سليمًا لشئون الدين والدنيا ، ومثل ذلك الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، نعطى ونجازى المحسنين الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله أحسن الله - سبحانه - جزاءه .

بعد أن حدثتنا السورة الكريمة عن شراء عزيز مصر ليوسف، وعن وصيته لامرأته بإكرام مثواه - انتقلت السورة لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها فى حياة يوسف - عليه السلام - ، وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده وآتاه الله حكماً وعلمًا ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى بأسلوبها البليغ ما فعلته معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد - فتقول : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه

قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر قال إنه من كيدِكُنَّ إن كَيدكُن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [الآيات من ٢٣ - ٢٩] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ... ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف فى منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

والمراودة - كما يقول صاحب الكشاف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه . أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريدأن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ...

والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة : للإشعار بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل ، وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفًا من الله - تعالى - .

وقال - سبحانه - : ﴿ التى هو فى بيتها ﴾ دون ، ذكر لاسمها : سترًا لها ، وابتعادًا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن الكريم فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .

وقوله - سبحانه : ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ : أى أنها أحكمت إغلاق جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه عن نفسه ، زيادة فى حمله على الاستجابة لها .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : ﴿ هيت لك ﴾ أى : هأنذا مهيئة لك فأسرع فى الإقبال نحوى .

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت عن المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة ..

و ﴿ هَيْتَ ﴾ اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهى كلمة حض وحث وتحريض على الفعل .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ : بيان لما رد به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

و ﴿ مَعاذ ﴾ مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف . أى : قال يوسف فى الرد عليها : أعوذ بالله معاذًا مما تطلبينه منى ..

والضمير فى قوله : ﴿ إنه ربى ﴾ يعود على الله - عز وجل - فيكون لفظ ربى بمعنى خالقى أى : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله وأعتصم به من أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله - تعالى - بما أكرمنى به من النجاة من الجب ، ومن تهيئة الأسباب التى جعلتنى أعيش معززًا مكرمًا ، وإذا كان - سبحانه - قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يغضبه ؟ لا ثم لا ، لن أفعل ما يغضبه - سبحانه - لأن من يفعل ما يغضب الله - تعالى - يكون من الخاسرين .

وجوز بعضهم عودة الضمير فى ﴿ إنه ﴾ إلى زوجها ، فيكون

المعنى : قال يوسف فى رده عليها : معاذ الله أن أخون زوجك الذى اشترانى بماله فى شرفه ، وأن أعتدى على عرضه بعد أن أمرك بإكرامى .

وفى هذه الجملة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه .

وجملة : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل آخر لصدها عما تريده منه .

أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران ، وعدم الفلاح والظفر وإدراك المأمول فى الدنيا والآخرة .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة : يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها : ﴿ هيت لك ﴾ ، بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله - تعالى - حكاية عنه : ﴿ معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ، وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة .

ولكن نداء العقل والعفاف ، ونداء الشهوة الجامحة ، لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا صدامًا آخر بينهما فيقول : ﴿ ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه ... ﴾ .

وهذه الآية الكريمة خلط المفسرون لها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة خلطًا كبيرًا ، وسنكتفى هنا بذكر الرأى الذى تطمئن إليه نفوسنا ، ونطرح ما عداه من الآراء التى لا نرتاح إليها فنقول وبالله التوفيق :

الهَـمُّ : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول :هممتُ بفعل هذا الشيء ، إذا أقبلتْ نفسُك عليه دون أن تفعله .

وقال بعض العلماء : الهَمُّ نوعان : همٌّ ثابت معه عزمٌ وعقدٌ ورضا ، وهو مذموم مُؤاخذ به صاحبه . وهَمٌّ بمعنى خاطر وحديث نفسى ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد فى الأعيان .

أخرج الشيخان - البخارى ومسلم - عن أبى هريرة ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به » . وقد أجمع العلماء على أن هَمَّ امرأة العزيز بيوسف كان هَمًّا بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها له : ﴿ هَيْتَ لك ﴾ .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همَّه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية ، من غير جزم أو عزم .. وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه : ما غرسه الله - تعالى - فى قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولايليق به . أو هو - كما قال الإمام ابن جرير - : « رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان هَمَّ به » . والمعنى : ولقد قصدت امرأة العزيز من

يوسف قصدًا جازمًا ، أن يطاوعها فى فعل ما نهى الله – تعالى – عنه ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل ، وهَمَّ يوسف – عليه السلام – بأن يطاوعها بمقتضى طبيعته البشرية وما ركب فيها من شهوات ، ولكنه استطاع بسبب خشيته من ربه أن يقاوم هذه الشهوات ، وأن يكبحها ، وأن يتغلب عليها ، وأن يقف بنفسه عند حدود الله – تعالى – فلا يتجاوزها .

فالمراد ببرهان ربه : مراقبته لخالقه ، وخوفه منه ، ووقوفه عند حدوده . هذا هو الرأى الذى نختاره فى معنى هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى : صاحب الكشاف – رحمه الله – فقد قال ما ملخصه : وقوله – تعالى – : ﴿ ولقد همت به ﴾ معناه : ولقد همت بمخالطته ﴿ وهمَّ بها ﴾ أى : وهمَّ بمخالطتها . وقوله : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ : جوابه محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف لأن قوله ﴿ وهم بها ﴾ يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله ، إذ معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

فإن قلت : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟

قلتُ : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلاً يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأن

استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله – تعالى – بأنه من عباده المخلصين » [تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٣١١] .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الآلوسى فقد قال – رحمه الله – : وقوله – تعالى – : ﴿ ولقد همت به ﴾ أى : قصدت المخالطة وعزمت عليها عزمًا جازمًا ، لا يلويها عنها صارف بعد ما باشرت مباديها .

﴿ وهمَّ بها ﴾ أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية .. ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدًا اختياريًّا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها ، فى الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به ..

وقوله : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أى : محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله ، والمراد : برؤيته له : كما إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين .. » [تفسير الآلوسى : جـ ١٢ صـ ١٩١] .

هذا ، وهناك آراء – أخرى – فى معنى الآية – رأينا أن نضرب عنها صفحاً ، لأنه لا دليل عليها لا من النقل ولا من العقل ولا من اللغة ، وإنما هى من الأوهام الإسرائيلية التى تتنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف – عليه السلام – .

وقوله – تعالى – : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من

عبادنا المخلصين ﴾ : بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .

والكاف : نعت لمصدر محذوف ، والإشارة بذلك تعود إلى الإراءة المدلول عليها بقوله - تعالى : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان ، والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله - تعالى - عنه .

أى : أريناه مثل هذه الإراءة ، أوثبتناه تثبيتا مثل هذا التثبيت ، لنعصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء والفحشاء ، لأن يوسف - عليه السلام - من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من يوسف وامرأة العزيز بعد ذلك فقال : ﴿ واستبقا الباب ﴾ أى : وتسابقا هو وهى نحو الباب الخارجى للبيت .

وسبب تسابقهما : أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبًا منها بعد أن طلبت منه ارتكاب الفاحشة ، وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وجملة : ﴿ وقدّت قميصه من دبر ﴾ حالية . والقد : لقطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولاً ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله - سبحانه : ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أى : ووجدا وصادفا زوجها عند الباب الذى تسابقا وتدافعا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، يبدو أنه كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم وقوله - تعالى : ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ : حكاية لما قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف أى : قالت تلك المرأة لزوجها ، عندما فوجئت به لدى الباب : إن الجزاء العادل ، والعقاب المناسب لمن أراد بأهلك - تعنى نفسها - سوءًا - أى : فاحشة تسوءك هذا العقاب أو الجزاء يكون بالإلقاء به فى السجن ، أو بإنزال العذاب الأليم عن طريق الضرب الشديد ، أو الجلد الموجع ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على أهلك وهذا القول الذى حكاه القرآن عنها ، يدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء ، والتحكم فى إرادة زوجها .

ورحم الله الإمام الآلوسى ، فقد علق على قولها هذا الذى حكاه القرآن عنها بقوله : « ولقد أتت تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى حيث شاهدها زوجها وهى على تلك الحالة المريبة - أتت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما : تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه ..

ولم تصرح بالاسم بأن تقول - مثلا - ما جزاء يوسف الذى أراد بأهلك سوءًا - بل أتت بلفظ عام ، تهويلاً للأمر ، ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءًا .

ثم إن حبها ليوسف حملها على أن تبدأ العقوبة بذكر السجن ، وتؤخر

العذاب الأليم ، لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، لاسيا أن قولها : ﴿ إلا أن يسجن .. ﴾ قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين .. » [تفسير الآلوسى : جـ ١٢ صـ ٥] .

والحق أن هذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن عن تلك المرأة ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء ، ومن مظاهر ذلك : محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف - عليه السلام - قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوءه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسعى زوجها فى التخلص منه بالطريقة التى يراها .. وفى الوقت نفسه إفهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هى الآمرة الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

وهنا نجد يوسف لا يجد مفرًا من الرد على هذا الاتهام الباطل فيقول : ﴿ هى راودتنى عن نفسى .. ﴾ أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إنى ما أردت بها سوءًا كما تزعم ، وإنما هى التى بالغت فى ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما لا يليق معها .. ثم قال - تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل : ابن عم لها ، وقيل أنه كان صبيا فى المهد ، كما وردت بذلك بعض الآثار ، فقد أخرج ابن جرير والبيقهى والإمام أحمد فى سنده ، عن ابن عباس ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : تكلم فى المهد أربعة وهم : صفار ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم » .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة ، على أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى بشهادته ، ليثبت براءة يوسف أمام العزيز ، وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقد قال هذا الشاهد فى شهادته : إن كان قميص يوسف قد قطع من الأمام كانت تلك المرأة صادقة فى أن يوسف قد أراد بها سوءًا ، لأن ذلك يدل على أنها دفعته عنها من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها ، وكان هو من الكاذبين فى قوله : ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ .

وإن كان قميصه قُدَّ من الخلف ، كانت هى كاذبة فى دعواها أن يوسف أراد به سوءًا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ، وكان هو من الصادقين فى قوله إنها راودته عن نفسه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما رأى قميصه قُدَّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافًا تامًّا .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد شق من الخلف ، وجه كلامه إلى زوجته معاتبا إياها بقوله : إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من كيدكن ومكركن ، إن مكركن عظيم فى بابه ، لأن كثيرًا من الرجال لا يفطنون إلى مراميه وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجه له بهذا الأسلوب الهادئ الناعم ، بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها ، بل إلى الجنس كله فقال : ﴿ إنه من كيدكن ﴾ . ثم وجه

كلامه إلى يوسف فقال له : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه ، ولا تتحدث به خوفًا من الفضيحة ، وحفاظًا على كرامتى وكرامتها .

وقوله : ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ : خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتًا تامًا .

أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بسبب قصدك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برىء منه .

وجملة : ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ تعليل لطلب الاستغفار . أى : توبى إلى الله مما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف ، جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخذة وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسمًا وحزمًا فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين تهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها ، وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لومًا خفيفًا يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة ، ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى بيتها ، بعد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما .

هذا ، ومن العبر والعظات والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة مايأتى : أن اختلاط الرجال بالنساء بطريقة تأباها الشرائع السماوية ، وتأباها - أيضًا - مكارم الأخلاق ، كثيرًا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة ، وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة ، وميل المرأة إلى

الرجل أمر طبيعى ، وما بالذات لا يتغير .

ووجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد فى سن كانت هى فيها مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابًّا جميلاً .. أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر : ﴿ هَيْتَ لك ﴾ أى : إنى قد هيأت نفسى لك .

ولا شك أن من الأسباب الأساسية التى جعلتها تقول هذا القول العجيب ، وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرمت شريعة الإسلام تحريمًا قاطعاً الخلوة بالأجنبية ، سدًّا لباب الوقوع فى الفتن ، ومنعًا من تهيئة الوسائل للوقوع فى الفاحشة .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك : ما أخرجه الشيخان عن عقبة ابن عامر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحَمْوَ يا رسول الله ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - الحَمْو الموت - والحمو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه ، أى : أن دخول قريب الزوج بدون ضرورة شرعية على غير محارمه قد يؤدى إلى ارتكاب فاحشة تؤدى إلى قتله وقد قيل لامرأة كانت سيدة قومها ومع ذلك وقعت فى الفاحشة ، ما الذى حملك على ذلك وأنت كذا وكذا ؟ فقالت : حملنى على ذلك قرب الوساد ، وطول السِّواد !! أى : حملنى على ذلك قربى ممن أحبه ، وكثرة محادثتى له ، إذ السواد - بكسر السين - مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .

أن هَمَّ الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول فى مرحلة التصميم والتنفيذ لامؤاخذه فيه .

قال القرطبى - رحمه الله - : الهمُّ الذى هم به يوسف ، من نوع

ما يخطر فى النفس ، ولا يثبت فى الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قالت الملائكة ياربنا ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو - سبحانه - أبصر بعبده - ، فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة .. »

وفى الحديث الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تعمل أو تتكلم به » . أن من الواجب على المؤمن اذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يذكرٌ الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها ، كما قال يوسف - عليه السلام - : ﴿ معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة ونقاء العرض ، من الله - تعالى - ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف - عليه السلام - وتلك المرأة ، وزوجها ، ورب العالمين . والكل شهد ببراءة يوسف عن المعصية . أما يوسف فقدقال : ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ وقال : ﴿ رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ﴾ وأما امرأة العزيز فقد قالت : ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ . وأما زوجها فقد قال : ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ .

وأما شهادة رب العالمين ببراءته ، ففى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك

لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .
[تفسير الفخر الرازى : جـ ١٨ صـ ١١٦] .
إن موقف العزيز من امرأته كان موقفًا ضعيفًا متراخيًا ، وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة المتحكمة فى زمام زوجها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشف واستهتار : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .
إن القرآن الكريم قد صور تلك المحنة فى حياة يوسف وامرأة العزيز تصويرًا واقعيًا صادقًا ، ولكن بأسلوب حكيم ، وبطريقة عفة مهذبة ، بعيدة عما يخدش الحياء ، أو يجرح الشعور ، ولم تأخذ تلك الواقعة من قصة يوسف الطويلة ، سوى حجمها المناسب ، فهى لم تأخذ سوى بضع آيات ، من بين عشرات الآيات التى حكاها القرآن عن قصة يوسف - عليه السلام - ، وفى هذا العرض ما فيه من عبرة وعظة ، لمن يسرفون وهم يتحدثون عن هذه الجوانب العاطفية ، التى يجب أن يكون الكلام عنها بقدر وحكمة .
ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء ، بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد أن سمع ما سمع من تهديدهن وإغرائهن .. قال تعالى : ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم . قالت

فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ [الآيات ٣٠ - ٣٤] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ... ﴾ حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور فى مجالسهن ، ولا يكتمنها ، خصوصًا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة ، كامرأة العزيز .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر ، على سبيل النقد والتشهير والتعجب : إن امرأة العزيز ، صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال فى انقيادها لهواها ، وفى خروجها عن طريق العفة ، أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى : أنها تطلب منه موافقتها على ما تريده منه ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل ، ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولاصفاتهن ، لأنه لا يتعلق بذلك غرض ولأن الذى يهدف إليه القرآن ، هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء فى مدينة كبيرة كمصر .

وفى وصفها بأنها امرأة العزيز : زيادة فى التشهير بها ، فقد جرت العادة بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارًا بينهم ، وأشد فى النقد والتجريح .

وجملة ﴿ قد شغفها حبا ﴾ : بيان لحالها معه . والمقصود بها تأكيد

لومها وانقيادها لشهواتها ولفظ ﴿ شغف ﴾ مأخوذ من الشغاف -بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه أو حجابه . يقال : شغف الهوى قلب فلان شغفا ، إذا بلغ نهايته .

والمراد أن حبها إياه قد تمكن من قلبها تمكنًا لا مزيد عليه .

وجملة : ﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ : مقررة لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها .

أى : إنا لنراها فى خطأ عظيم واضح ، بحيث لا يخفى على العقلاء ، لأنها - وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير - تراود فتاها عن نفسه .

والتعبير بقولهن : ﴿ إنا لنراها .. ﴾ بصيغة التأكيد ، للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا السلوك الذى صدر عنها .

قال صاحب المنار : « وهن ما قلن ذلك إنكارا للمنكر ، وكرها للرذيلة ، ولا حبًا فى المعروف ونصرًا للفضيلة ، وإنما قلنه مكرًا وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن لرؤيته ... فهو مكر لا رأى » . [تفسير المنار جـ ١٢ صـ ٢٩١] .

وهنا تحكى لنا السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال : - تعالى - : ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ ... ﴾ .

أى : فلما سمعت امرأة العزيز بسوء مقالة هؤلاء النسوة فيها ، أرسلت إليهن ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام ،

وهيأت لهن فى مجلس طعامها ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق وما يشبه ذلك ، مما يساعد على طول البقاء ، وكما هى عادة المترفين عند تناول الطعام .

وبعد أن حضرن هذا المجلس ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ ليقطعن به ما يأكلنه من لحم وفاكهة ، مما يدل على الحضارة المادية كانت قد بلغت فى مصر شأواً بعيدًا .. بعد كل ذلك قالت ليوسف - عليه السلام - : ﴿ اخرج عليهن ﴾ أى : ادخل عليهن وهن على تلك الحالة من الأكل والاتكاء .. فامتثل لأمرها ودخل عليهن .. ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

أى : فلما دخل عليهن ورأين جماله الباهر ، أصابهن الدهش ، وجرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى بأيديهن دون أن يشعرن بذلك ، وقلن عندما شاهدن طلعة يوسف على سبيل التعجب : ما هذا الذى نراه أمامنا بشرا كسائر البشر ، لتفوقه فى الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين ، تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب .

ووصفنه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ما هو مفرط فى الجمال والسفه بالملك ، وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشيطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على هؤلاء النسوة ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى ، وبدون استحياء أو تلميح : ﴿ فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ .

أى : قالت لهن إن كان الأمر كما قلتن : فذلك هو الملك الكريم

الذى لمتننى فى حبى له ، وقلتن ما قلتن فى شأنى لافتتانى به ، والآن قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه .. ثم جاهرت أمامهن بأنها قد أغرته وراودته عن نفسه فقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ .

أى : والله لقد راودته بشتى المغريات عن أن يستجيب لرغبتى ، فأبى ، وامتنع امتناعًا شديدًا عن الاستجابة لى .

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين ﴾ .

أى : ووالله لئن لم يفعل يوسف ما أمرته به من الاستجابة لرغباتى ، ليكونن مصيره إلى السجن ، أو ليكونن من الأذلاء المهانين المقهورين .

وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرًا ، مع أنه عزيز مصر .

ووصل إلى مسامع يوسف - عليه السلام - هذا التهديد السافر ، والإصرار على تنفيذ الشهوات الجامحة ، فلجأ إلى ربه مستجيرًا به ، ومحتميًا بحماه ، فقال : ﴿ رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ . أى : قال يوسف متضرعًا إلى ربه : يارب إن السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه من ارتكاب الفواحش معهن ..

وقال أحب إلى مما يدعوننى إليه ، ولم يقل مما تدعونى إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعًا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وجماله ، وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار .

ثم اعترف يوسف - عليه السلام - بضعفه البشرى فقال : ويارب إن لم تصرف عنى كيدهن ومكرهن ، أصب إليهن ، أى : أمِلْ إليهن ، وأستجب لإلحاحهن ، وأكن بسبب هذه المطاوعة لهن من الجاهلين السفهاء ، الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقد أجاب الله - تعالى - دعاء عبده يوسف ، فأنقذه من مكرهن فقال : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعته ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى قلوبهن من الطمع فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخدع بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن ، إنه - سبحانه - هو السميع لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعة المخلصين ، العليم بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ... ﴾ وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، لأنه مع شبابه وجماله وكماله ، تدعوه سيدته ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ، ويختار السجن خوفاً من الله ورجاء فى ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله » [تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٣١٣] .

﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف السجن مع ثبوت براءته مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو فى السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما يدعو إليه ، وفسر لصاحبيه فى السجن رؤياهما تفسيرًا صادقًا صحيحًا .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرًا ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى

الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ [الآيات من ٣٥ - ٤٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ : بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن ثبتت براءته .

ولفظ « بدا » من البَداء - بفتح الباء - وهو - كما يقول الإمام الرازى - عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى السابق .

والضمير فى ﴿ لهم ﴾ يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته ، كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ ، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهى الكاذبة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا الأدلة الواضحة على براءة يوسف ، وعلى طهارة عرضه ، وصدقه فى قوله ... بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم فى شأنه ، وأن يسجنوه فى المكان المعد لذلك إلى مدة غير معلومة من الزمان ، ولا شك أن الأمر بسجن يوسف - عليه

السلام - كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذا لتهديداتها بعد أن صمم يوسف على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ ولا شك - أيضا - أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير فهى تقوده حيث تريد .

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف - رحمه الله - فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات .... ﴾ وهى الشواهد على براءته ، وما كان ذلك باستنزال المرأة لزوجها .. وكان مطواعًا لها ، وجملًا ذلولًا زمامه فى يدها حتى أنساه ذلك ماعاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الضر به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها ... » [تفسير الكشاف : جـ ٢ صـ ٣١٩] .

ثم بين - سبحانه - جانبًا من أحواله بعد أن دخل السجن فقال : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ... ﴾ ..

ولفظ ﴿ فتيان ﴾ : تثنية فتى ، وهو الإنسان الذى جاوز الحلم ودخل فى سن الشباب قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازًا للملك وصاحب طعامه . وكان الآخر ساقيًا للملك وصاحب شرابه ، وقد أدخلهما الملك السجن لاتهامهما بالخيانة أى : بعد أن بدا للعزيز وحاشيته سجن يوسف ، نفذوا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل فى السجن فتيان من خدم الملك ، قال أحدهما وهو ساقى الملك ليوسف - عليه السلام - ﴿إنى أرانى أعصر خمرا ﴾ أى : إنى رأيت فى منامى أنى أعصر عنبا

ليصير خمرًا .. ﴿ وقال الآخر ﴾ – وهو خباز للملك – إنى رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأسى خبزًا ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .

أخبرنا يا يوسف بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، لأننا نراك ونعتقدك من الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك من السجناء الذين أنت واحد منهم .

وقبل أن يبدأ يوسف – عليه السلام – فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمهد لذلك ، بأن يبدأ بنفسه وبعقيدته ويدعوهما إلى عبادة الله – تعالى – وحده ، ويقيم لهما الأدلة وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم ، الغيورين على نشرها بين الناس إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبله ويستجيب لهم .. وهذا ما كان من يوسف – عليه السلام – فقد بدأ فى رده عليهما بقوله : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ... ﴾ .

أى : قال يوسف لرفيقيه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما : لا يأتيكما – أيها الرفيقان – طعام ترزقانه فى سجنكما فى حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بماهيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول فسيتجيبا لدعوته لهما إلى الحق .

وقوله : ﴿ ذلكما مما علمنى ربى ﴾ : نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والاخبار عن المغيبات ،

كإخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ، ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق الكهانة أو التنجيم كما يفعل غيرى .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ إنى تركت ملة قوم ﴾ أى : دين قوم ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أى إلا يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ﴿ وهم بالآخرة ﴾ وما فيها من ثواب وعقاب ﴿ هم كافرون ﴾ أى : جاحدون لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه من إشراك وكفر ، ولم يوافق الفتيان بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه .

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة بدون إحراج أو تنفير .

ولما كان تركه لملة قوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، نراه يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : ﴿ واتبعت ملة آبائى ﴾ الكرام المؤمنين بوحدانية الله - تعالى - ﴿ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ - عليهم السلام - وسماهم آباء جميعًا لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الاقرب ثم الأب ، لكون إبراهيم - عليه السلام - هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليهم السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان منه - عليه السلام - لرفيقيه فى السجن ، بأنه من سلسلة كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف .

وقوله : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ تنزه عن الشرك بأبلغ وجه . أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شيء من الإشراك قليلاً ذلك الشيء أو كثيرًا ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله عن ذلك . وقوله : ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ : اعتراف منه برعاية الله - تعالى - له ولآبائه أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه - علينا معشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس الذين هداهم الله إلى الحق .. ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - تعالى - على نعمه الجزيلة ، وآلائه التى لا تحصى .

وبعد أن عرَّف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبملته وبآبائه ، شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته فقال : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ .

أى : يا صاحِبَىَّ ورفيقىَّ فى السجن : أخبرانى بربكما ، أعبادة عدد من الأرباب المتفرقة فى ذواتها وصفاتها خير لكما ، أم عبادة الله - تعالى - الواحد فى ذاته وصفاته ، القهار لكل من غالبه أو نازعه ؟ لاشك أن عبادتكما لخالقكما ورازقكما هى العبادة الصحيحة التى ما خلقكما الله - تعالى - إلا من أجلها .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة فقال : ﴿ ما تعبدون من دونه ﴾ - سبحانه - ﴿ إلا أسماء ﴾ أى : ألفاظًا فارغة لا قيمة لها ﴿ سميتموها ﴾ آلهة بزعمكم ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ أما هى فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست رازقة .

﴿ وما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى : ما أنزل الله بتسميتها أربابًا من برهان أو دليل وقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ... ﴾ انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته - سبحانه - إلى أمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الحق المستقيم الثابت ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

وبعد أن عرَّف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبعقيدته ، وأقام لهما الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، أتبع ذلك بتفسير رؤيتهما فقال : ﴿ يا صاحبى السجن أما أحدكما ﴾ وهو ساقى الملك فيخرج من السجن بريئًا ويسقى ﴿ ربه ﴾ أى : سيده ﴿ خمرًا ﴾ .

وأما الآخر وهو خباز الملك وصاحب طعامه فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه بعد موته .

ثم أكد لهما الأمر واثقًا من صدق العلم الذى علمه الله إياه فقال : ﴿ قُضِى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ أى : ثم تفسير الأمر الذى سألتمانى عنه تفسيرًا صحيحاً .

ثم ختم يوسف حديثه مع صاحبيه فى السجن بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ .

أى : وقال يوسف للفتى الذى ظن أنه سينجو منهما - وهو ساقى الملك - : قال له أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك : اذكر حقيقة أمرى عنده ، وبلغه بأنى برىء وبأنى مظلوم ولا أستحق دخول السجن بسبب طهارتى .. ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله يوسف له ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف فى السجن مظلومًا بضع سنين - والبضع من ثلاث إلى تسع .

وقد قالوا : إن يوسف قد لبث فى السجن بعد خروج الساقى منه سبع سنين ..

قال الإمام ابن كثير : قوله - سبحانه - : ﴿ اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه .... ﴾ .

أى : قال يوسف للساقى اذكر قصتى عند سيدك ، فنسى ذلك الموصَى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكايد الشيطان .. هذا هو الصواب وهو أن الضمير فى قوله : ﴿ فأنساه ﴾ عائد على الناجى منهما ، كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد من المفسرين .. [تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٣١٦]

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فأنساه ﴾ يعود إلى يوسف وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - وعليه يكون المعنى : وقال يوسف للفتى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك : اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه ، فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله - تعالى - وحده ، فلبث فى السجن بضع سنين .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول وهو عودة الضمير فى ﴿ فأنساه ﴾

على ساقى الملك أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .. ﴾ يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ فأنساه ﴾ يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد به سيده ومخدومه ، ولأن مباشرة الأسباب لا تتنافى مع الاعتماد على الله - تعالى - .. [راجع تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ صـ ١٤٤] .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم ، جانبًا من حياة يوسف فى السجن ، فماذا كان بعد ذلك ؟

رؤيا الملك وتفسير يوسف لها

تحكى لنا الآيات الآتية أن الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلاً صحيحًا سوى يوسف - عليه السلام - .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقص ذلك فيقول : ﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبعَ سنبلات خضر وأخر يابسات . يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادَّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبًا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد

ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ [الآيات ٤٣ - ٤٩] .

قال الإمام ابن كثير : هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله - تعالى - أنها كانت سببًا لخروج يوسف من السجن معززاً مكرمًا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك .. [تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢١٧] .

وقوله : ﴿ عجاف ﴾ جمع عجفاء . والعَجف - بفتح العين والجيم - الضعف وذهاب العافية . يقال : هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء ، إذا ظهر ضعفهما وهزالهما .

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته : إنى رأيت فيما يرى النائم ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ قد امتلأن لحما وشحما ﴿ يأكلهن سبع ﴾ بقرات ﴿ عجاف ﴾ أى : ضعاف ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم ﴿ سبع سنبلات خضر ﴾ قد امتلأت حبًّا ، وإلى جانبها سبع سنبلات ﴿ أخر يابسات ﴾ قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

يأيها الأشراف والعلماء من قومى فسروا لى رؤياى ، وبينوا لى ما تدل عليه ﴿ إن كنتم ﴾ تعرفون تفسير هذه الرؤيا ، وتعلمون تعبيرها وتأويلها علمًا صحيحًا .

فقوله - سبحانه - : ﴿ تعبرون ﴾ من العَبْر ، وهو اجتياز الطريق

أو النهر من جهة إلى أخرى . وسمى المفسر للرؤيا عابرًا ، لأنه يتأمل فيها ، وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

قال بعض العلماء : « والتعريف فى لفظ (الملك) للعهد ، أى : ملك مصر . وسماه القرآن هنا ملكًا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها « الهكسوس » وهم العمالقة ، الذين ملكوا مصر من سنة ١٩٠٠ ق م إلى ١٥٢٥ ق م .

فالتعبير بالملك هنا دون التعبير عنه بفرعون ، مع أن القرآن قد عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعد من دقائق إعجاز القرآن العلمى » [تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ صـ ٢٨٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور] .

ويبدو أن القوم فى ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته عندهم ، فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه فى السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك فى زمن كثر فيه البارعون فى تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف ، حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ : حكاية لما رد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد ، وهو ما جمع فى حزمة

واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطًا غير متجانس .

والأحلام : جمع حُلم - بإسكان اللام وضمها - وهو ما يراه النائم فى منامه ، وتطلق كثيرًا على ما ليس بحسن ، ففى الحديث الصحيح : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان » .

أى : قال الملأ للملك : ما رأيته - أيها الملك فى نومك - ما هو إلا تخاليط أحلام ، فلا تهتم بها ، وإننا نحن لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم بمعرفة تفسير رؤيا الملك .

ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله : ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ فقد أتى بإن المفيدة للشك .

ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملأ من قوم الملك عن تأويل رؤياه فقال : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ .

وأصل ﴿ ادكر ﴾ إذتكر بوزن افتعل مأخوذ من الذُّكْر - بتشديد الذال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الذال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال لأنها أخف من الذال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما . والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان ، وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله له : ﴿ اذكرنى عند رَبك ﴾ .

أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ، ثم خرج منه بريئًا وهو ساقى الملك : قال هذا الساقى للملك وحاشيته بعد أن

تذكر ما كان من أمره مع يوسف : أنا أخبركم بتفسير رؤيا الملك ، فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف . وقوله : ﴿ يوسف أيها الصديق .... ﴾ من بديع الإيجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم أنا أخبركم بتفسير هذه الرؤيا فأرسلون إلى من عنده العلم بتفسيرها ، فأرسلوه فجاء إلى يوسف وقال له : يا يوسف يأيها الصديق ، أى : يا من أصبح الصدق خلقك وشأنك وطبعك ، كما عرفت ذلك منك وقت أن كنت معك فى السجن ﴿ أفتنا ﴾ أى : فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز الناس عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه ﴿ سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ تفسيرها فينتفعون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلاً مجردًا ، بل يؤولها تأويلاً صادقًا صحيحاً ، مصحوبًا بالنصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال فقال : - كما حكى القرآن عنه - :

﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبًا ... ﴾

أى : قال يوسف للساقى : ارجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿ فما حصدتم ﴾ من زرعكم فى كل سنة ﴿ فذروه فى سنبله ﴾ أى : فاتركوا الحب فى سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه .

﴿ إلا قليلًا مما تأكلون ﴾ أى : اتركوا الحب فى سنبله إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى مأكلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى الاقتصاد فى مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك وقوله : ﴿ ثم يأتى بعد ذلك ﴾ أى : بعد تلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿ سبع شداد ﴾ أى : سبع سنين صعاب على الناس لما فيهن من الجدب والقحط ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنابلها .

وقوله : ﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾ أى : أن تلك السنين المجدبة ستأكلون فيها كل ما ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئاً قليلًا منه يبقى محرزا ومدخرًا ، لتنتفعوا به فى زراعتكم وحاصل تفسير يوسف لتلك الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخصبة ، وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التى ستأتى فى أعقاب السنين المخصبة ، وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدبة . وقوله : ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ تبشير لهم بأن الخير سيأتيهم بعد تلك السنوات

الشداد ، فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ ﴿ يُغَاث ﴾ من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التى يسوقها الله - تعالى - لهم بعد تلك السنوات الشداد التى قل فيها المطر .

ولفظ ﴿ يعصرون ﴾ من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج ما فيه من مائع سواء أكان هذا الماء زيتًا أم ماء أم غيرهما .

أى : ثم يأتى من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ، بسبب إرسال الله - تعالى - المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه ، وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد .

وما قاله يوسف - عليه السلام - عن هذا العام الذى يأتى فى أعقاب السنوات السبع الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة التبشير للملك وللناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما بوحى من الله - تعالى - الذى يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .

وإلى هنا نرى أن يوسف - عليه السلام - قد فسر رؤيا الملك تفسيرًا سليمًا حكيمًا ، كان من نتائجه الخير للملك وقومه . فماذا فعل الملك مع يوسف بعد ذلك ؟

يوسف فى مجلس الملك

ثم قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته ، وما رد به يوسف - عليه السلام - على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة العزيز فى شأن يوسف وما طلبه - عليه السلام - من الملك . استمع إلى القرآن الكريم - وهو يحكى ذلك فيقول :

﴿ وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم . وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنَّا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [الآيات من ٥٠ : ٥٧] .

وقوله - تعالى - ﴿ وقال الملك ائتونى به ...﴾ حكاية لما طلبه الملك فى ذلك الوقت من معاونيه فى شأن يوسف - عليه السلام - وفى الكلام حذف يفهم من المقام .

والتقدير : وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف فى تفسير الرؤيا : أحضروا لى يوسف هذا لأراه فأسمع منه ، وأستفيد من علمه ..

وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازى فى تفسيره - على فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما علَّمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الآخروية « وتفسير الفخر الرازى - ص ١٨ ص ١٥١ » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ... ﴾ بيان لما قاله يوسف عليه السلام - لرسول الملك .

أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد لقاءه ، وقال له يوسف بأناة وإباء : ارجع إلى ﴿ ربك ﴾ أى : إلى سيدك الملك ﴿ فاسأله ﴾ قبل خروجى من السجن وذهابى إليه ﴿ ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ أى : ما حال وما شأن النسوة اللاتى حدث بينى وبينهن ما حدث ، وما حقيقة أمرهن معى » ..

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه ، لزيادة تهييجه على البحث والتقصى ، حتى تسفر الحقيقة عن وجهها ، ويعرف البرىء من غير البرىء .

واكتفى بالسؤال عن تقطيعهن لأيديهن ، دون التعرض لمكرهن به ، وكيدهن له ، سترا لهن وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوءهن ، ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفرض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

أى : إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - يتولى حسابهن على ذلك . ولاشك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته .. يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث التى تدل على فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه : « وقد وردت السنة بمدحه على ذلك - أى : على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد . ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن .. ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر » .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له : العذر » [تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٧]

وهذه الأحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، إنما تدل على تواضع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وإلا فإنه أقوى الرسل عزماً ، وأرفعهم مقاما وأشدهم صبرا .

ثم بين - سبحانه - ما قاله الملك بعد أن بلغه الرسول ما قاله يوسف

له فقال : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ ..

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف : استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

أى : قال الملك لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه ؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكن ؟ .

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملكن الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : ﴿ حاش لله ﴾ أى : معاذ الله ﴿ ما علمن عليه من سوء ﴾ قط ، وإنما الذى رأيناه منه هو البعد عن كل سوء وهنا ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ ويبدو وأنها كانت حاضرة معهن عند الملك : ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ .

أى : الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تامًّا بعد أن كان خافيا .

والفعل : ﴿ حصحص ﴾ : أصله حَص ، وهو مأخوذ من الحص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حص شعره ، إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته .

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ أى : أنا التى طلبت منه ما طلبت ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ فى كل قوله ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ .

وهكذا يشاء الله – تعالى – أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللائى قطعن أيديهن .

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ .

أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسى من أنى راودته عن نفسه ، إنما قلته ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئاً يسوءه بعد أن فارقنى ، وإنما قلت ذلك لأن الله – تعالى – يعلم السر وأخفى ، وأنه – سبحانه – لا ينفذ كيد الخائنين ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان ...

وإنى لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برىء منه ، والنفس البشرية أمارة بالسوء وبالميل مع الهوى والشهوات ، إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، إن ربى كثير الغفران والرحمة لمن يشاء من عباده .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف – عليه السلام – الذى خاف مقام ربه ونهى نفسه عن الهوى ..

ويبدو لنا والله أعلم – أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الايمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا نقيًّا عفيفاً ، يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه عن غيره .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف – عليه السلام – القسم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن

والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز وبعضها من السجن ومرارته .

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته - عليه السلام - وهو جانب الرخاء والعز والتمكين فى حياته فقال - تعالى - ﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ﴾ .

أى : وقال الملك لحاشيته بعد أن سمع ما سمع عن طهارة يوسف وعفافه : ائتونى به ليكون خالصا لنفسى ، وخاصا بى فى تصريف أمورى ، وكتمان أسرارى ، وتسيير دفة الحكم فى مملكتى ونفذ الجند ما أمرهم ملكهم به ، وأحضروا يوسف إلى مجلسه فلما رآه وكلمه ازداد تقديره له ، و إعجابه به وقال له : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ .

أى إنك يا يوسف منذ هذا اليوم صرت عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة التى تجعلنا نأتمنك على كل شىء فى هذه المملكة .

وهنا طلب يوسف من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها فقال : ﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى خزائن أرض مصر ، لأنى شديد الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصريفها فيما يفيد وينفع .. فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وتدبير شئونها ، لأنها مقبلة على سنوات عجاف تحتاج إلى خبرة يوسف

وأمانته ، وكفاءته ، وعلمه ...

قال القرطبى ما ملخصة : دلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً . فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله ﷺ فى الأحاديث الصحيحة من نهيه طلب الإمارة .

فالجواب : أولاً : أن يوسف إنما طلب الولاية لعلمه أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح ، وتوصيل الحقوق لأهلها ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ..

الثانى : أنه لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض ، لأنى حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إنى جميل مليح ، وإنما قال ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستفادا من قوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ... ﴾ [تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٢١٦]

والخلاصة ، أن يوسف – عليه السلام – إنما قال ما قال للملك ، وطلب منه ما طلب ، لأنه رأى أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه فى ذلك الوقت فى تلك الظروف ، فهو يهدف من ورائه خدمة الأمة لا أجر منفعة شخصية لنفسه .

وما قاله إنما هو من باب المتحدث بنعمة الله ، الذى أعطاه وهذه الصفات الكريمة والمناقب العالية ، وليس من باب التزكية المحظورة .

ثم بين – سبحانه – بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين.ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

أى : ومثل هذا التمكين العظيم مكنا ليوسف فى أرض مصر بعد أن مكث فى سجنها بضع سنين ، بأن هيأنا له بعد هذا الظلم الذى نزل به ، أن يتنقل فى أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها ، ونحن بقدرتنا ورحمتنا وإرادتنا نعطى من نشاء عطاءه من عبادنا ، ولا نضيع أجر المحسنين الذين يتقنون أداء ما كلفناهم به ، ولعطاء الآخرة أعظم وأبقى من عطاء الدنيا للمؤمنين الصادقين وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثًا تترك معرفتها إلى فهم القارئ وفطنته . فهى لم تحدثنا - مثلاً - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله : ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ للدلالة على كفاءته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السبع العجاف ، وفى السنوات الخضر ، لأن هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أمينا على خزائن الأرض ، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالا للناس منازلهم ، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد ، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله تعالى - وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

لقاء يوسف بإخوته

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة هذا الحديث الطويل عن رؤيا يوسف ، وعن إلقاء إخوته له فى الجب ، وعن خروجه منه وبيعه بثمن زهيد ، وعن المؤامرات التى تعرض لها فى بيت امرأة العزيز ، وعن إلقائه فى السجن لبضع سنين ، وعن خروجه من السجن ، وتمكينه فى أرض مصر ..

بعد كل ذلك انتقلت السورة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ، وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم ، فقال - تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ [الآيات من ٥٨ : ٦٢].

قال الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآيات : « اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل - أيضا - إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب - عليه السلام - وصعب الزمان عليهم - فى فلسطين بالشام - فقال لبنيه : إن بمصر رجلًا صالحاً يمير الناس - أى : يعطيهم الطعام وما هم فى حاجة إليه فى معاشهم - فاذهبوا إليه بدراهمكم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة ، ولم يبق منهم سوى « بنيامين » مع أبيه يعقوب ، ودخلوا على يوسف ، وصارت هذه الواقعة كالسبب فى

اجتماع يوسف مع إخوته ، وظهور صدق ما أخبر الله عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوا به فى الجب : ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

والمعنى : وجاء إخوة يوسف من بلادهم الشام متجهين إلى مصر ، ليلتمسوا فيها وسائل العيش بعد أن أصاب فلسطين القحط ، ﴿ فدخلوا عليه ﴾ أى : على يوسف بعد أن وصلوا مصر ، ﴿ فعرفهم ﴾ يوسف بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فلم يعرفوه لطول عهد فراقهم له ، ولقلة اهتمامهم بشأنه بعد أن ألقوا به فى الجب ، وللمنصب العظيم الذى صار يشغله وهم ما توقعوا أن يصل يوسف إلى هذا المنصب .

ويبدو أن هذه المجاعة التى حدثت لمصر فى السنين السبع العجاف ، قد عمت البلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد الشام ، وأن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد ، بفضل حسن سياسة يوسف ، وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس ...

ثم بين – سبحانه – ما قاله يوسف لإخوته بعد أن أعطاهم ما هم فى حاجة إليه فقال : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

أى : وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد ومتاع ، قال لهم : أنا أريد منكم فى الزيارة القادمة لمصر ، أن تحضروا معكم أخاكم من أبيكم لكى أراه ،

وقوله : ﴿ ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ : تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم فى ذلك حتى ينشطوا فى إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى مصر منزلاً كريماً ..؟

ومادام أمرى معكم كذلك ، فلابد من أن تأتونى معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ .

أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقائكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقائكم القادم معى ، فإن لم تأتونى به معكم عند عودتكم إلى ، فإنى لن أبيع لكم شيئا مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك فإنى أحذركم من أن تقربوا بلادى فضلا عن دخولها .

وهذا التحذير منه لهم ، يشعر بأن اخوته قد ذكروا له أنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

وقد رد إخوة يوسف عليه بقولهم : ﴿ سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار شقيقه « بنيامين » معهم عند عودتهم إليه : سنطلب من أبينا حضور بنيامين معنا ، وسيكون هذا الطلب بكل رفق ولين وممايلة ، وإنا لفاعلون هذه المراودة باجتهاد لا كلل معه ولا ملل ، وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم ، – وهو بنيامين الشقيق الأصغر ليوسف – ، ليس أمراً سهلاً

أو ميسورا ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين – سبحانه – ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ .

والفتيان : جمع فتى والمراد بهم هنا : الذين يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله . والبضاعة فى الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التى تقتنى للتجارة مأخوذة من البَضْع بمعنى القطع . والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذى أعطاه يوسف لهم . والرحال جمع رحل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف – عليه السلام – لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم – وهم إخوته – الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ويفتحون أمتعتهم فيجدون فيها الاثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام وغيره ، لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه .

وكأن يوسف – عليه السلام – أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم « بنيامين » ، لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان ، وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته

بعد أن دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم « بنيامين » الشقيق الأصغر ليوسف ، فماذا كان بعد ذلك ؟

إخوة يوسف يحاورون أباهم فى شأن بنيامين

ثم قصت علينا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم يعقوب ، من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم فى اصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما قصت علينا ما رد به أبوهم عليهم ، فقال - تعالى : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا مُنِع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل . وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الآيات من ٦٣ - ٦٨] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا

الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل ... ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به . والمراد بالكيل : الطعام المكيل الذى هم فى حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه فى المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك . والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدرك من السياق ، والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم فلسطين ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ما طلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل : « يا أبانا » : لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة ، إذا لم نأخذ معنا أخانا « بنيامين » ليراه عند عودتنا إليه فقد قال لنا مهددا عند مغادرتنا له ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾ . وأنت تعلم أننا لابد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ، فنرجوك أن توافقنا على اصطحاب « بنيامين » معنا ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ حفظاً تاما من أى مكروه .

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله ...

وكأنهم فعلوا ذلك ليشعروه بأن إرسال « بنيامين » معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيترتب عليه منع الطعام عنهم ، ولكن يبدو أن قولهم هذا ، قد حرك كوامن الأحزان والآلام فى نفس يعقوب ، فهم الذين سبق لهم أن قالوا له فى شأن يوسف – أيضا – ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

لذا نجده يرد عليهم فى استنكار بقوله : ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ .

أى : قال لهم : أتريدون أن أئتمنكم على ابنى « يعقوب » كما أئتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التى تعرفونها جميعا وهى فراق يوسف لى فراقاً لا يعلم مداه إلا الله - تعالى ؟ لا إننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته فهو - سبحانه - خير حافظ لمن يريد حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، وهو - سبحانه - أرحم الراحمين لخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى « بنيامين » كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .

ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد إمكان إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى ، لذا اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا منها ما أحضروه من زاد وطعام من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله - تعالى : ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ... ﴾ أى حين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر ، فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد ردت إليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين : ﴿ يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ أى : قالوا بدهشة يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر ؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

وقوله – سبحانه – حكاية عنهم : ﴿ ونمير أهلنا ﴾ معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فننتفع بها فى معاشنا ، « ونمير أهلنا » أى : ونجلب لأهلنا الميرة وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ عند سفره معنا من أى مكروه ﴿ ونزداد ﴾ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر ﴿ كيل بعير ﴾ أى : يعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظرا لوجود أخينا معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف – عليه السلام – كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد ... واسم الإشارة فى قوله – سبحانه – : ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ : يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر . أى : ذلك الطعام الذى أعطانا عزيز مصر إياه ، طعام يسير ، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتى بطعام آخر .

وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاها القرآن عنهم : تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب « بنيامين » معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر . ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزيز مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهم ، وازدياد الأطعمة بسبب وجوده معهم .

ولكن يعقوب – عليه السلام – مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن

فى قوله : ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ... ﴾ .

أى : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم « بنيامين » إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك إلا أن نهلك جميعا ، أو أن نغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقال : أحيط بفلان ، إذا هلك أو قارب الهلاك . وأصله من إحاطة العدو بالشخص واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالباً .

وقوله - تعالى : ﴿ فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين ، بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر ، قال لهم على سبيل التأكيد والحث على وجوب الوفاء : الله - تعالى - على ما نقول أنا وأنتم مطلع ورقيب ، وسيجازى الأوفياء خيرا ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقونه من عقاب .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم : ﴿ وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... ﴾ .

أى : وقال يعقوب لأبنائه وهو يودعهم : يا أبنائى إذا وصلتم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلاً ، بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب معين ، وكانت أبواب مصر - كما قيل - أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ، ما ذكره الآلوسى فى قوله : « نهاهم عن الدخول من باب واحد ، حذرا من إصابة العين - أى - من الحسد - فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ... فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى : يحسدوا ، إذا ما دخلوا كوكبة واحدة ...

ثم قال : والعين حق كما صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصح - أيضاً - بزيادة ولو كان شىء يسبق القدر سبقته العين » . وقد ورد - أيضا - « إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر » . [تفسير الآلوسى جـ١٣ ص ١٥]» .

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ، فيترامى فى أذهانهم أنهم جواسيس أو ماشابه ذلك ، « فربما سجنوهم أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام .

وقوله - سبحانه : ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شىء ﴾ : اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره الله - تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة .

أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم ولو كان هذا الشىء قليلاً ، ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع ، ولا يدافعه مدافع . ﴿ عليه توكلت ﴾ أى : عليه - سبحانه - وحده فوضت أمرى .

﴿ وعليه ﴾ وحده ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ أى : المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها ، إذ ... أن كلا من التوكل ومن الأخذ بالأسباب ، مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله – تعالى – بها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يرد منعه ، فهو الفعال لما يريد .

ويعقوب – عليه السلام – عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة ، تأدبًا مع الله – تعالى – واضع الأسباب ومشرعها ..

ثم بين – سبحانه – أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ... ﴾ .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفا عليهم من الحسد .

ومعنى « قضاها » : أظهرها ولم يستطع كتمانها . يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوهم بالدخول منها ﴿ ما كان ﴾ هذا الدخول ﴿ يغنى عنهم ﴾ أى : يدفع عنهم من قدر الله من شىء قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة ، أى رغبة خطرت فى نفسه ﴿ قضاها ﴾ أى : أظهرها ووصاهم بها ، ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم ، مع اعتقاده بأن

كل شىء بقضاء الله وقدره .

وقوله - تعالى - ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ثناء منه - سبحانه - على نبيه يعقوب - عليه السلام - بالعلم وحسن التدبير .

أى وأن يعقوب - عليه السلام - لذو علم عظيم للشىء الذى علمناه إياه عن طريق وحينا ، فهو لا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمور .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيهم « بنيامين » - شقيق يوسف - معهم إلى مصر ، بناء على طلب يوسف منهم ذلك ، فماذا كان منهم بعد هذه الأحداث ! .

لقاء يوسف مع إخوته ومع شقيقه « بنيامين »

حكت لنا سورة يوسف بعد ذلك أن إخوته سافروا إلى مصر ، ومعهم شقيقه « بنيامين » ، والتقوا جميعاً هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات والمفاجآت والمحاورات ... التى حكاها القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد

فى الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بماتصفون . قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون . فلما اسْتَيْئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهوخير الحاكمين .. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بماعلمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ [الآيات من ٦٩-٨٢] .

وقوله – تعالى : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ... ﴾ شروع فى بيان ما دار بين يوسف – عليه السلام – وبين شقيقه بنيامين بعد أن حضر إلى مصر مع إخوته وقوله : ﴿ آوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم . يقال : آوى فلان فلانا إذا ضمه إلى نفسه وقولها : ﴿ فلا تبتئس ﴾ افتعال من البؤس ، وهو الشدة والضر ، والحزن .

أى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه بنيامين ، وقال له مطمئنا ومواسيا ، إنى أنا أخوك الشقيق ، فلا تحزن ولا تبتئس بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ،

فإن الله - تعالى - قد عوّض صبرنا خيرا ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله تعالى - عن إخوة يوسف حين دخلوا على يوسف ومعهم أخوه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له ؟ وقال له لا تأسف على ما صنعوا بى ، وأمره بكتمان هذا عنهم ، وألّا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرمًا معظمًا » [تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٥]

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، لكى يبقى أخاه معه ، فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ... ﴾ .

والجهاز - كما سبق أن بينا - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ..

والسقاية : إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة يكون من معدن نفيس ، وقد كان يوسف - عليه السلام - يكتال به فى ذلك الوقت ، نظراً لقلة الطعام وندرته .. وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع .

أى وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا فى متاع أخيه « بنيامين » دون أن يشعر بهم أحد وقوله : ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ : بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأوشكوا على

الرحيل والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع لِيُعلم الناس ما يريد إعلامهم به .

والمراد بالعير هنا : أصحابها والأصل فيها أنها اسم للإبل التى تحمل الطعام أي : ثم نادى مناد على إخوة يوسف وهم يتجهزون للسفر بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل فى أمركم فأنتم متهمون بالسرقة .

ثم بين – سبحانه – ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال – تعالى – : ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون : ماذا تفقدون – أيها الناس – من أشياء حتى تتهمونا بأننا سارقون ؟

وهنا رد عليهم هذا المنادى ومن معه من حراس : نفقد صواع الملك ، أى : الوعاء الذى يشرب فيه ، ويكتال به عند الحاجة .

﴿ ولمن جاء به ﴾ أى : بهذا الوعاء أو دل على سارقه ﴿ حمل بعير ﴾ أى : من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له ..

﴿ وأنا به زعيم ﴾ أى : وأنا بهذا العطاء كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردًّا يدل على استنكارهم لهذه التهمة ، وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ أى : قال إخوة يوسف لمن اتهمهم

بالسرقة : والله ياقوم لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم لكى نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم لنرتكب هذه الجريمة ، لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، ولو ارتكبنا جريمة السرقة لمنعتمونا من دخول بلادكم التى لا غنى لنا عنها .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه الذين يبدو أنهم يتحدثون بما كلفهم به يوسف : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ أى قالوا لهم : إذاً فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم ، وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين ؟

فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم : ﴿ جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين ﴾ .

والمراد بالجزاء هنا : العقاب الذى يعاقب به السارق فى شريعتهم . والضمير فى قوله « جزاؤه » يعود إلى السارق ..

أى : قال إخوة يوسف جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحله ومتاعه أن يصبح عبدا رقيقا بعد أن كان حرا لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا عقوبة له على السرقة .

وقوله – سبحانه : ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد هذه المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف ، وبين الذين اتهموهم بالسرقة ، والتى انتهت بموافقة إخوة يوسف على تفتيش أمتعتهم للبحث عن صواع الملك ، قام الحراس بالتفتيش ، فبدأ المكلف

بذلك بتفتيش أمتعتهم ، قبل أن يفتش متاع بنيامين فلم يجد شيئاً ، فلما انتهى إلى متاع بنيامين وجد الصواع بداخله فأخرجه منه على مشهد منهم جميعا .

ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد من يوسف - عليه السلام - وبتوجيه منه للمؤذن ومن معه ..

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزى ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل بنيامين ، وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة ..

يطوى القرآن ذلك كله ، ليترك للعقول أن تتصوره .. ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ذلك فيقول : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ : و﴿ كدنا ﴾ من الكيد ، وأصله الاحتيال والمكر ، وهو : صرف غيرك عما يريده بحيلة . وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح ، ومحمود أن تحرى به الفاعل الخير والمراد به هنا : النوع المحمود .

والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم ..

وقوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ أى : مثل هذا التدبير الحكيم ألهمناه ليوسف ، وما كان ليستطيع أن يحتجز أخاه معه لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال فى شريعة يعقوب - عليه السلام - التى عليها

بناؤه ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

فالمقصود بدين الملك : شريعته التي يسير عليها أهل مملكته .

وقوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف ، عليه السلام ... أى : دبرنا ليوسف هذا التدبير الحكيم ، ولولاه لما استطاع أن يحتجز أخاه ، وما كان ليوسف أن يفعل كل ذلك التدبير الحكيم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئة الله - تعالى - ومعونته وإذنه بذلك ، فهو الذى ألهمه أن يدس السقاية فى رحل أخيه ، وأن يسأل إخوته عن عقوبة السارق فى شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك فى رحله منهم .

﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ رفعه وتكريمه ﴿ .. وفوق كل ذى علم ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿ عليم ﴾ يزيد عنهم فى علمهم وفى مكانتهم عند الله - تعالى - .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على « بنيامين » - شقيق يوسف - فقال : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ أى : قال إخوة يوسف بعد هذا الموقف المحرج لهم : إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك ، فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك . وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مراد إخوة يوسف بقولهم هذا ، ومنها : أن يوسف وهو صغير سرق صنما من ذهب وفضة ، ثم كسره وألقاه فى عُرْض الطريق ، فعيَّره إخوته بذلك .

وقوله : ﴿ فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله

إخوته فى شأنه وفى شأن شقيقه ، فساءه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه ، وإنما رد عليهم بقوله : بل أنتم أيها الإخوة أشد فى الشر والأذى منى أنا وأخى ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخدعتموه ، وقلتم له بعد أن ألقيتم بى فى الجب : لقد أكله الذئب ... ﴿ والله ﴾ - تعالى - ﴿ أعلم ﴾ منى ومنكم ﴿ بما تصفون ﴾ به غيركم من الأوصاف التى يخالفها الحق ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف له بعد ذلك على سبيل الرجاء والاستعطاف فقال - تعالى - ﴿ قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ... ﴾ أى : قالوا له يأيها العزيز الذى أكرمنا وأحسن إلينا ، إن أخانا بنيامين الذى احتجزته عندك لمدة سنة على سبيل الاسترقاق ، له أب شيخ كبير قد تقدمت به السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حبًّا جما ، فخذ أحدنا مكانه حتى لا نفجع أبانا فيه ، وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لاعتقادنا أنك من المحسنين إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا بنيامين ليسافر معنا .

ولكن يوسف - عليه السلام - رد عليهم ردًّا حازما حاسما قال فيه : ﴿ معاذ الله ﴾ أى : حاش لله ونعوذ بالله من ﴿ أن نأخذ ﴾ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى ﴿ وجدنا متاعنا عنده ﴾ أى : وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعاً لشريعتكم .

و﴿ إنا إذًا لظالمون ﴾ إذا أخذنا شخصا آخر سوى الذى وجدنا

متاعنا عنده ، والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدال فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدال ، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال إخوته فى العفو عن « بنيامين » ، أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم ، وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلما اسْتَيْئَسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ﴾ .

وقوله : ﴿ استيئسوا ﴾ أى : يئسوا يأسا تامًّا .

وقوله : ﴿ خلصوا ﴾ من الخلوص بمعنى الانفراد . و ﴿ نجيا ﴾ بمعنى المناجاة فى السر ..

والفاء فى قوله : ﴿ فلما استيئسوا .. ﴾ للعطف على محذوف يفهم من السياق ..

والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيهم « بنيامين » ليأخذ أحدهم بدله ، فلما يئسوا يأسا تاما من الوصول إلى مطلوبهم ، انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ، ولا يجد معهم بنيامين ...

وهنا قال لهم كبيرهم فى السن وهو « روبيل » ، أو كبيرهم فى العقل وهو « يهوذا » .. ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض - قال لهم : ﴿ ألم تعلموا ﴾ وأنتم تريدون الرجوع على أبيكم

﴿ أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ عندما أرسل معكم بنيامين بأن تحافظوا عليه ، وألا تعودوا إليه بدونه ..

وألم تعلموا كذلك أنكم فى الماضى قد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتم به فى الجب ...

لاشك أنكم قد علمتم كل ذلك ، ولهذا فوالله لن أبرح أرض مصر ولن أفارقها حتى يأذن لى أبى بمفارقتها ، أو حتى يحكم الله لى بالخروج منها وبمفارقتها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق مع أبى ، وهو - سبحانه - أحكم الحاكمين ، لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : ﴿ ارجعوا ﴾ يا إخوتى ﴿ إلى أبيكم ﴾ يعقوب ﴿ فقولوا ﴾ له برفق وتلطف : ﴿ يا أبانا إن ابنك ﴾ بنيامين ﴿ سرق ﴾ صواع الملك ، ووجد الصواع فى رحله ، وقولوا له - أيضا - إننا ﴿ ما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا ويقيننا بأنه سرق ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا ، وقولوا له - أيضا - على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل أهل القرية التى كنا فيها ، بأن ترسل من تريد إرساله إلى أهل مصر لتسألهم عن هذه الحادثة وهى سرقة « بنيامين » لصواع الملك فإنهم يعرفونها جيداً واسألك كذلك ﴿ العير التى أقبلنا فيها ﴾ أى : قوافل التجارة التى صاحبتنا عند ذهابنا إلى مصر وعند رجوعنا منها ، فسيخبرونك بهذه الحادثة بالتفصيل وإنا لصادقون صدقاً تاما فى كل ما أخبرناك به .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب ، ما دار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ، ومعهم شقيقه « بنيامين » فماذا كان بعد ذلك ؟ .

﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ﴾

لقد حكت الآيات الكريمة بعد تلك المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف وهم بأرض مصر ، أن عادوا إلى أبيهم ، وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن على - على عادته فى هذه السورة الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق رده عليهم ، الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله فى رحمة الله - تعالى - فيقول : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [الآيات من ٨٣ - ٨٧].

أى قال يعقوب - عليه السلام - لبنيه الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيج أحزانه .

قال لهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمرا أنتم أردتموه ،

فصبرى على ما قلتم صبر جميل ، أى : لا جزع معه ولا شكوى إلا لله - تعالى .

ولعل الذى حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول ، المفيد لتشككه فى صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ماضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه فى يوسف ، بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه ..

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة الله ، وفى رجائه الذى لا يخيب فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعا فقال - عليه السلام : ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعا - يوسف وبنيامين وروبيل - الذى تخلف عنهم فى مصر ، إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل ما يفعله ويقضى به . وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ، وحسن صلته بالله - تعالى - وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه - سبحانه - وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، مالا يراه غيره بحواسه وجوارحه .

ثم يصور - سبحانه - ما اعترى يعقوب من أحزان على يوسف ، جددها فراق بنيامين له فقال - تعالى : ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ ..

ولفظ ﴿ كظيم ﴾ هنا بمعنى مكظوم . وهو الممتلئ بالحزن ولكن يخفيه عن الناس ولا يظهره لهم .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله أبناؤه له ، ورد عليهم بما يدل على شكه فى صدقهم ، انتابته الأحزان والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون ، وتركهم واعتزل مجلسهم وهو يقول : ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ أى : يا حزنى الشديد على ابنى يوسف أقبل فهذا أوان إقبالك . ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ حتى ضعف بصره ، وانقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء ، ومن كثرة امتلائه بالحزن المكتوم فى قلبه على فراق يوسف .

قالوا : وإنما تأسف على فراق يوسف دون أخويه - بنيامين وروبيل - مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ، لأن المصيبة فى فراق يوسف كانت الأصل فى حزنه ، وكانت القاعدة التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب بعد ذلك ، ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى « متمم بن نويره » فى رثائه لأخيه « مالك بن نويرة » حيث قال :

لقد لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر لقيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له إن الشجى يبعث الشجى ... فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم والحزن فيقول : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين ﴾ ولفظ « حرضا » مصدر حرض - كتعب - والحرض : الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض .
أى : قال أبناء يعقوب له : يا أبانا ، تا الله مايزال تذكرك ليوسف بهذا

الحزن الشديد ، حتى تشرف على الموت ، أو تكون من المفارقين لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم وأمل بقول : ﴿ إنما أشكو بثى ﴾ أى : همى الذى انطوى عليه قلبى ﴿ وحزنى ﴾ الشديد على فراق يوسف ﴿ إلى الله ﴾ تعالى وحده ، لا إلى غيره فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى ، فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى « فإنى أعلم من الله » أى : من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة ﴿ مالا تعلمون ﴾ أنتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يلطف بى ، وأن يجمع شملى بمن فارقنى من أولادى ، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .

ثم يمضى يعقوب - عليه السلام - فى رده على أولاده ، فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وألا يقنطوا من رحمة الله فيقول : ﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

أى : قال يعقوب لأولاده : يا بنى اذهبوا إلى أرض مصر ، أو إلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه ﴿ فتحسسوا ﴾ أمرهما ، وتعرفوا أمرهما بدون كلل أو ملل وفى التعبير بقوله : ﴿ فتحسسوا ﴾ إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى ، إذ التحسس هو طلب الشيء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث .

وقوله : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ أى : ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته .

وأصل معنى « الروح » : التنفس . يقال : أراح الإنسان إذا تنفس ،

ثم استعير لحلول الفرج ، وكلمة « رَوْح » - بفتح الراء - أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخانق ، بسبب ما تتنسمه الأرواح من رحمة الله .

وقوله : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ تعليل لحضهم على التحسس .

أى أنه لا يقنط من رحمة الله تعالى - إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بعظيم قدرته ، وسعة رحمته أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبدًا ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب .

اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته

استجاب أبناء يعقوب لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا فى طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزيز مصر - وهو يوسف عليه السلام - الذى احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة ما دار بينه وبينهم من مفاجآت مثيرة فتقول :

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرًا ، وأتونى بأهلكم

أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لاتعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الآيات من ٨٨ - ٩٨]

وقوله - سبحانه - ﴿ فلما دخلوا عليه .. ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد لقاء معه للمرة الثالثة ...

والبضاعة : هى القطعة من المال ، يقصد بها شراء شيء معين .

والمزجاة : هى القليلة الرديئة التى ينصرف عنها التجار إهمالاً لها .. وأصل الإزج السوق والدفع قليلا قليلا ..

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : قال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة : يأيها العزيز أصابنا وأصاب أهلنا الفقر والجدب ، وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة ، يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار إهمالاً لها ، واحتقارا لشأنها ...

﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ﴾ أى : هذا هو حالنا وشأننا قد شرحناه لك ومادام أمرنا كذلك ، فأتم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئا ، وتصدق علينا فوفنا حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ، إن الله - تعالى - يجزى المتصدقين على غيرهم جزاء كريما حسنا .

وهنا رد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : ﴿ هل علمتم ما

فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ .

أي : قال لهم على سبيل التعريض لهم ، والتذكير بأخطائهم ، هل علمتم ما فعلتموه بيوسف وبأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه ، حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه .. وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيهم يوسف ، فيقولون له فى دهشة وعجب : أئنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا ، والذى فارقناه وهو صغير ، فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئونها ؟ .

فرد عليهم بقوله : ﴿ أنا يوسف ﴾ الذى تتحدثون عنه ، والذى فعلتم معه ما فعلتم « وهذا أخى بنيامين » الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم ﴿ قد مَنَّ الله ﴾ تعالى : ﴿ علينا ﴾ حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج .

ثم علل ذلك بما حكاه عنه القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن كل ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه يرحمه الله برحمته ، ويكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وتلك سنته التى لا تتخلف ولا تتبدل .

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم الخزى والخجل ، حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان إليهم ، فقالوا له فى استعطاف وتذلل : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

أى : نقسم بالله - تعالى - لقد اختارك - سبحانه - لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة ، أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك من جرائم ، ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

فرد عليهم يوسف بقوله : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ .

أى قال لهم : يا إخوتى لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وآثام ، وأرجو الله أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب ، وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن فقال : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ .

أى : اذهبوا - يا إخوتى - بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى الذى طال حزنه بسبب فراقى له يأت بصيرا ، أى : يرتد إليه كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن ، وأتونى معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعا من رجال ونساء وأطفال .

وقول يوسف هذا ، إنما هو بوحى من الله تعالى - فهو - سبحانه -

الذى ألهمه أن إلقاء قميصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملاً ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكريمين .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ، ويصور القرآن ما حدث فيقول : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ .

ومعنى ﴿ فصلت العير ﴾ : خرجت من مكان إلى آخر ، يقال : فصل فلان من بلدة كذا ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة آخرى .

وقوله : ﴿ تفندون ﴾ من الفَند ، وهوضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن .

أى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب لمن كان جالسا معه : استمعوا إلىّ إنى لأجد رائحة يوسف التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به ، ولولا أن تنسبونى إلى ضعف العقل لصدقتمونى فيما قلت ..

وقد أشم الله تعالى - يعقوب رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة له .

قال الإمام مالك - رحمه الله : أوصل الله - تعالى ريح قميص يوسف إلى يعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه ..

ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا ما شمه ، ولم يحسوا ما أحسه ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ .

أى : نقسم بالله إنك يايعقوب مازلت غارقا فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك ، وهو حبك ليوسف ، وأملك فى لقائه وفى الإكثار من ذكره ، وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف ، وحل أوان المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله : ﴿ ولما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة أخرى أكرم الله بها نبيه يعقوب ، حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا — قال يعقوب لمن أنكر عليه قوله : ﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ : ألم أقل لكم قبل ذلك ، إنى أعلم من الله — تعالى — ومن رحمته ومن فضله وإحسانه مالا تعلمون أنتم ؟ .

ولم يجد الأبناء إزاء هذه الأحداث والمفاجآت إلا أن يقولوا لأبيهم . يعقوب : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى : تضرع إلى الله — تعالى — أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخوينا يوسف وبنيامين ، إنا كنا خاطئين فى حقك وفى حقهما ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عمن اعترف له بالخطأ فى حقه .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم : سوف أتضرع إلى ربى لكى يغفر لكم ذنوبكم ، إنه — سبحانه — هو الكثير المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

لقاؤه بأهله أجمعين

صورت لنا السورة الكريمة قبل ذلك ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه من مناقشات ومن لقاءات مثيرة ، وحافلة بالبشارات والمفاجآت ...

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت أخرى ، تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها ، فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم ...

استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ فى آخر القصة فيقول : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وَلِيِّى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ [الآيات من ٩٩ - ١٠١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه .. ﴾ معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ ، فأتوه بهم جميعا ، حيث رحلوا من بلاد

الشام التى كانوا يعيشون فيها إلى مصر ومعهم أبوهم يعقوب - عليه السلام - فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقاً حاراً ...

وقال للجميع : ﴿ ادخلوا ﴾ بلاد ﴿ مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من الجوع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلاما يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعا لاستقبالهم ... والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن فى ربوعها ..

قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقيموا فى مصر ما بين الثمانين والتسعين .

والمراد بالعرش فى قوله - سبحانه : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ : السرير الذى كان يجلس عليه .

أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى كان يجلس عليه ، تكريما لهما ، وإعلاء من شأنهما ..

﴿ وخروا له سجدا ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - وإنما المقصود به أنهم فعلوا معه ما يدل على احترامه وتوقيره ..

وقال يوسف متحدثا بنعمة الله : يا أبت هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى رأيتها فى صغرى ، فقد جعل ربى هذه

الرؤيا حقا ، وأرانى تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها هذا الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين هذه الرؤيا وبين ظهور تأويلها : أربعون سنة .

والمراد بها ما أشار إليه القرآن فى مطلع هذه السورة حيث قال - سبحانه - حكاية عن يوسف ﴿ يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين .. ﴾ . ثم قال يوسف - أيضا : وقد أحسن بى ربى - سبحانه - ﴿ إذ أخرجنى من السجن ﴾ بعد أن مكثت فيه بضع سنين ، وأحسن بى - أيضاً - حيث جمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية من أرض كنعان بفلسطين ، وبعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الجب .

وأسند النزع الذى هو بمعنى الإفساد إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك ستراً على إخوته وتأدبا معهم .

وقوله : ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقى لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون ، وأنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

ثم ختم يوسف ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير فقال : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾ أى : يارب قد أعطيتنى شيئاً عظيماً من الملك والسلطان بفضلك وكرمك ﴿ وعلمتنى ﴾ - أيضاً - شيئاً

كثيراً من تأويل الأحاديث أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرا صادقا بتوفيقك وإحسانك ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى : خالقهما على غير مثال سابق ﴿ أنت وَلِيِّى ﴾ وناصرى ومعينى فى الدنيا والآخرة توفنى عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقنى ﴿ مسلما ﴾ مدة حياتى ﴿ وألحقنى ﴾ فى قبرى ويوم الحساب ﴿ بالصالحين ﴾ من عبادك وبهذا الدعاء الجامع لألوان الخير الذى توجه به يوسف إلى خالقه ، يختتم القرآن قصة هذا النبى الكريم مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف – عليه السلام – لم يشغله الجاه والسلطان ، عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

وبعد : فهذه قصة يوسف – عليه السلام – كما وضحتها آيات القرآن الكريم ، تلك القصة الزاخرة بالحكم والأحكام ، وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها ، وعطائها ومنعها ، وسرها وعلانيتها ، ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها .

نسأل الله – تعالى – أن ينفعنا بهدى كتابه ، وأن يجعله شفيعا لنا يوم نلقاه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

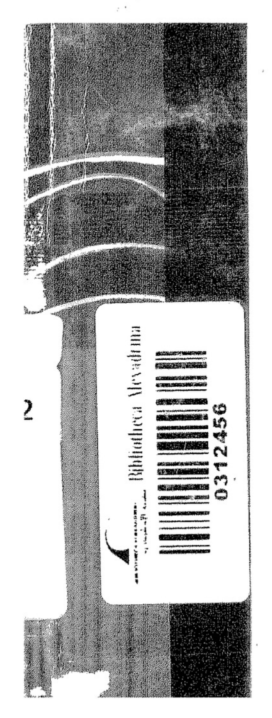
رقم الإيداع	١٩٩٦/١٣٣٢١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5346-2

٢/٩٦/٢١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذا هو الكتاب الثانى الذى صدر فى هذه السلسلة ، ويشمل قصة إبراهيم ، ويوسف - عليهما السلام - ومن قبل تناول الكتاب الأول ، الذى صدر فى هذه السلسلة أيضًا ، قصة آدم ، ونوح - عليهما السلام -

والقصة فى القرآن تشغل جانبًا كبيرًا من آياته وسوره ، ولا سيما السورُ المكية التى نزلت بمكة ... ولقصص القرآن الكريم أهداف سامية ، ومقاصدُ عالية ، وخصائصُ فريدة ، قام السيد المؤلف بإبرازها ، وتقديمها للقارئ بصورة جذابة ...





دار المعارف